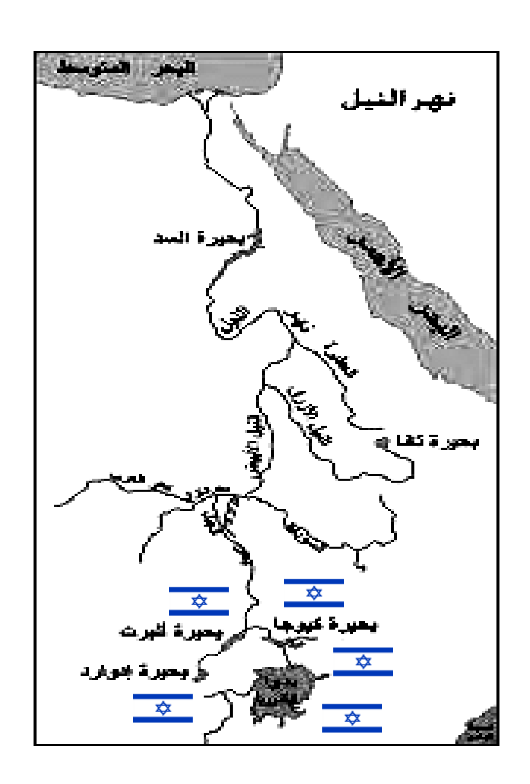
النيل ..
مشاكل المياه وأطماع إسرائيل



تأليف

عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســـم الكتاب : النيل مشاكل المياه وأطماع إسرائيل

المـــــــــؤلف : عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل

رقـــم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٣

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميـــدان حليـــم خلــــف بنـــك فيصــــل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_٥@yahoo.com

المقدمة

غاية ما يأمله الإنسان المصري في الحياة: (أن يسترها ربنا معاه)، فالستر غاية كل مصــري، بما فيه من الزهد الذي يبلغ درجة التقشـف بمكونات بسـيطة، لا تزيد على الزاد والكســاء، والعافية، في دولة حرة، آمنة، يعم فيها الرخاء ليشــمل جميع مواطنيها على السواء.

غير أن غاية المصريين، جثم على صدرها كابوس ثقيل الوطأة، منذ أن أعطت الحكومة البائدة –في مصــر– ظهرها لإفريقيا، وبات الباب مفتوحا على اتســاعه، فوجد العدو الصهيوني الفرصة أمامه سانحة ليعقد الصفقات، ويوطد العلاقات بكل من: الحبشة.. أوغندا.. تنزانيا.. كينيا.. دولة جنوب السودان.

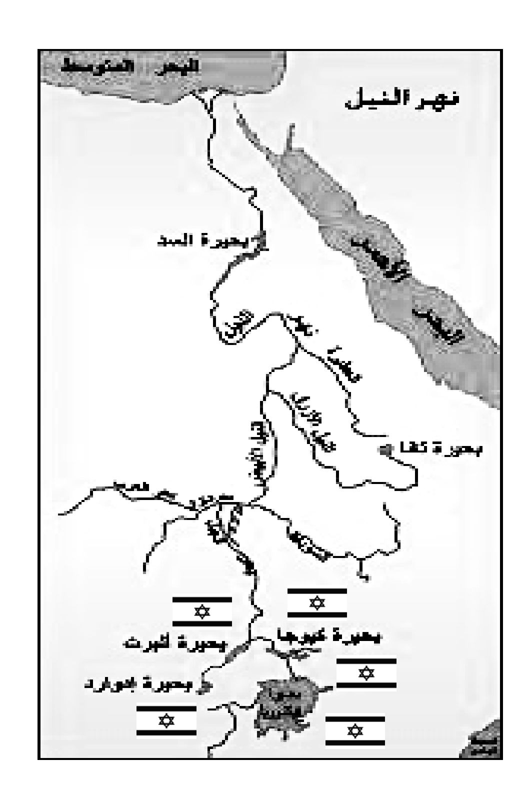
لا يعني ذلك أننا نرفض الآخر، لأنه (غيري)، بل يمكن –ما اســتطعنا– أن ندافع عن حق الإنســان أي إنسان لإثبات أن له حق في الوجود.

أما حين تنقلب الأمور على رأسها، ويصبح (غيري) يسعى لإفراغ شراييني من الدماء، وجسدي من الماء، فإن الأمر حينئذ يحتاج إلى دينامية في زخم قوة ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، حتى تسـتكمل عملية اسـتئصــال جذور الحقبة الديكتاتورية التي فرطت في دور مصــر الريادي، وتغاضــت عن ما يجري في بلاد منابع النيل، وتركتها فريسة لسطوة الصهيونية العالمية، ولشراسة الشركات متعددة الجنسيات.

وعلى الله القصد

المؤلف

الفصل الأول
الماء في القران الكريم



يتحدث القرآن الكريم عن الماء الذي جعل الله منه كل شـيء حي، وله عدة صـفات، منها الماء الطهور، وهو ماء المطر، ومنها العذب الذي نشربه من الأنهار والآبار، ويسمى الماء الفرات.

وهناك ماء البحر المشـوب بنسـبة عالية من الملوحة، ويسـمى بالماء الأجاج، وقد أثبت العلم الفوارق الكبيرة بين هذه الأنواع.

وما لاشـك فيه أن القرآن الكريم قد تحدث عن مواصـفات وخصـائص الماء قبل أن يكتشـفها علماء الجيولوجيا بقرون طويلة، وبما يؤكد أن القرآن هو أول كتاب يفرق بين أنواع الماء.

لقد وردت كلمة ماء في القرآن ثلاثا وسـتين مرة، وهى لفظة تدل على المفرد والجمع معا، هذا عدا خمس مرات فيها ماء بمعنى النطفة، أو ماء التناسل، وتشير الآيات (٦٨-٧٠) من سورة الواقعة إلى حقيقتين:

ينزل ماء المطر من المزن جمع مزنة وهى سـحابة بيضـاء مشـبعة بقطيرات الماء، أو المضـيئة أي المليئة بالبرق أو الممطرة.

ينزل ماء المطر عذبا زلالا، ولو شاء الله تعالى لجعله أجاجا أي مالحا مرا.

وتشـاء إرادة العلي القدير أن يحتوي الماء على عناصـر ومواد معدنية، تمكن الإنسـان من المحافظة على بقائه، مثل الحديد.. النحاس.. الألمنيوم.. الصوديوم.. المغنزيوم.. الكالسيوم، كما يحتوي الماء على مواد عضوية مثل الكربون، وغير ذلك.

وتهتم المختبرات العلمية بتنقية الماء من الشـوائب وذلك بتسـخينه حتى درجة الغليان، أي ١٠٠ درجة مئوية، ثم يتم جمع البخار وتكثيفه وتبريده والحصـول على الماء المقطر الذي يصـبح نقيا من البكتريا والفيروسات.

ويعتبر الماء سراً من أسرار الحياة، وأصل من أصولها التي لا يمكن لها أن توجد بدونه.. هكذا قدر الله سبحانه وتعالى، فجعل الأرض أغنى الكواكب الثرية بالماء، فأنشأه من عناصر وأخرجه من داخلها، ليكتشف ثم يعود إليها مطرا، وبردا، وثلجا، يفتت صخورها، ويشق الفجاج والسبل فيها، ويكون تربتها و صخورها الرسوبية، ويركز أعدادا من الثروات المعدنية فيها، ويجري على سطحها سيولا جارفة، وأنهارا متدفقة.

ذكر علماء الفلك والجيولوجيا أن نشــأة الماء تبدأ من الانفجار الكبير، حيث الكون والمجرات، وظهر حينها ما يســمى بالأرض، في شــكل كرة ملتهبة، وأشــار القرآن الكريم إلى تلك الحقيقة قبل ألف وأربعمائة ســنة: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾ [النازعات ٣١:٣٠] وذكر الله تعالى الماء في القرآن منكرا «ماء» ٣٣ مرة، وذكره معرفا «الماء» ١٦ مرة.

وتلخص نظرية المياه الكونية المنشــأ في أن الماء ينثال على الأرض من على ســطح الفضــاء الخارجي، وتكشف هذه النظرية عن أن هناك تيارات من الأ شعة الكونية تتحرك في الفضاء الكوني مكونة من جسيمات ذات طاقة ضــخمة جدا تحتوي على نوى ذرات الهيدروجين، أي على البرتونات لدى حركة كوكب الأرض أثناء دورا نه حول الشــمس، حيث تخترق هذه البروتو نات جو الأرض، وتحصــل على الإليكترو نات الضرورية.

من هذه المولدات، تتشكل ذرة الهيدروجين، حيث تتفاعل مبا شرة مع الأكسيجين مشكلة جزيئات على ارتفاعات كبيرة، وفي ظل درجات حرارة منخفضــة، تتكاثف على جســيمات من الغبار الكوني مكونة ســحبا فضــية، وعلى ضــوء التقديرات العلمية، يعتقد العلماء أن الماء المشــكل بهذه الطريقة خلال التاريخ الطويل الذي مرت به الكرة الأرضية أثناء تشكيلها، يكفي لملء المحيطات كافة على سطح هذه الأرض.

وأجمع العلماء، دونما استثناء، على أن أفضل أنواع الماء هو ماء المطر قبل سقوطه على الأرض، ولسقوط المطر فائدة أخرى، حيث يشكل الطاقة الوحيدة القادرة على امتصاص المواد الضارة من الجو، مثل الكبريت والرصاص والمعادن المختلفة.

ومن فضــل الله على المخلوقات، أنه أنزل من الســماء الماء، وذكر مادة الماء منكرة دون تعريف ليدل على أن عموم جنس الماء نزل من السماء، وذلك في أكثر من عشرين آية:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ {٢٢} [البقرة:٢٢].

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأنعام:٩٩].

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال:١١].

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد:١٧].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٢].

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر:٢٢].

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [النحل:١٠].

* وذكر الله سبحانه وتعالى الماء بأنه من نعيم الجنة وأن أهل النار يعذبون بحرمانهم منه: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الأعراف:٥٠].

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النحل:٦٥].

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [طه:٥٣].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الحج:٦٣].

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [المؤمنون:١٨].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الفرقان:٤٨].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [العنكبوت:٦٣].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الروم:٢٤].

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان:١٠].

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ ﴾ [فاطر:٢٧].

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الزمر:٢١].

﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الزخرف:١١].

﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ ﴾ [ق:٩].

وفريضة الوضوء شرط وجوب على كل مسلم عند كل صلاة، والاغتسال عند كل جنابة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [المائدة:٦].

ولماء المطر فوائد لا تعد ولا تحصى، إلى جانب أنه ماء مقطر يحتوي على خصائص مطهرة، ومنه يتطهر الإنسان، ويزيل الأوساخ العالقة بملابسه، ولقد صدق الله عندما سمى الماء النازل من السماء بالماء الطهور، وهى تسمية دقيقة من الناحية العلمية: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الفرقان:٤٨].

و سمى الله تعالى ماء الأنهار، والماء المختزن تحت الأرض والذي نشربه بالماء الفرات، أي المستساغ الطعم، بينما سمى ماء البحر بالأجاج للتدليل على ملوحته الزائدة، وبذلك يكون القرآن الكريم أول كتاب يعطينا تصنيفا علميا للمياه.

ومن آيات الله التي تحدثنا عن هذه الخصائص بشكل قاطع وواضح: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال:١١]

تخبرنا الآية الكريمة عن طاقة الماء وخاصيته فهو طهور إلى جانب تأثيره في حركة الإنسان ومنحه القوة لتثبيت قدميه حتى يكون قادرا على الصمود في وجه الأعداء، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴾.

وعندما يتحدث القرآن عن ماء الأنهار، يستخدم كلمة: فراتا، ولا يستخدم كلمة: طهور، لأن ماء النهر العذب يحتوي على كثير من المعادن والأملاح، وعندما ينزل من السماء يكون طهورا، كما في قوله تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر :١٢].

وفي الآيات التي اختصت بذكر الماء، نجد أن فيها تذكيرا وتأكيدا بأنه ينزل من السماء إلى الأرض لتكون منه المحيطات والبحار والأنهار، ثم ينتهي جزء منه ليكون عددا من الخزانات المائية تحت سطح الأرض، ويتجمع جزء منه على هيئته سُمك متفاوت من الجليد، ويختزن بعضه في الطبقات المسامية، في بعض الصخور، ثم يخرج على هيئة العيون والينابيع فيؤدي ذلك كله إلى ضبط الحياة على الأرض في توازن حراري يتناسب مع الحفاظ على غلافها الغازي.

ويشكل الماء ٧٠٪ من مساحة اليابسة، ويشكل ٦٥٪ من وزن الإنسان والكائنات الحية، ويقوم بدور كبير في سير التفاعلات الكيميائية داخل أجسام النباتات والحيوانات من أجل الحصول على الطاقة.

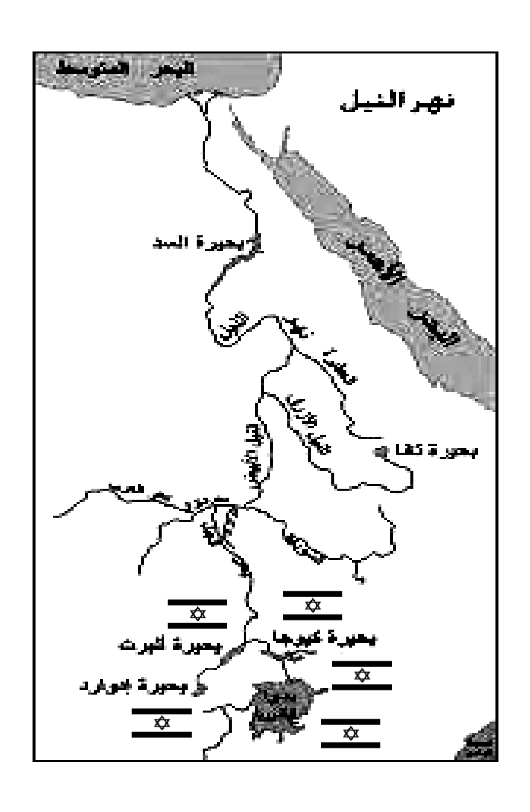
وفي السنة المحمدية نهى الرسول ﷺ عن منع الماء حتى لا يؤدي هذا المنع إلى ضرر بأي كائن حي أيا كان، وقد جعله الرسول ﷺ صدقة تفضي إلى الجنة.

عن كدير الضبي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أخبرني بعمل يدخلني الجنة، قال: «**قل العدل وقدّم الفضل**»، قال: نعم، قال: «**انظر بعيرا عن إبلك و سقاء يسقي عليه الماء، وانظر أهل بيت لا يجدون الماء إلا غبا، فلعله أن لا ينفق بعيرك، ولا ينخرق سقاؤك حتى تحب الجنة**»

وهناك الكثير من الأحاديث النبوية الداعية إلى حماية الماء والحفاظ عليه، وعدم الإسراف فيه، فعن ابن عمر قال: «رأى رسول الله ﷺ رجلا يتوضأ فقال:« **لا تسرف، لا تسرف**» وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ فقال: «ما هذا الإسراف؟» قال: أفي الوضوء إسراف؟.. قال: «**نعم وإن كنت على نهر جار**».



الفصل الثاني
ماذا قال الرسول ﷺ في الماء



لكم تساءل الأقدمون:

من أين يأتي النيل؟

قال الأقدمون الكثير في النيل.. أساطير.. روايات.. قصص.. أهازيج.. قصائد وأشعار، قيل فيه قصص قد لا يصدقها بعض الناس، وقصص قد يسيغها العقل على قدر اتساعه وعمق إيمانه، حيث تتراوح قوة العقول بفعل طاقة الطبيعة إبان باكورة أيامها، وبما كان لها من قوة الشحذ، وشحن الوجدان وتغذيته بمواد شعورية، وتخيلية، تكاد تكون منعدمة حديثا.

من ذلك ما ذكر أن النيل كان في غابر الزمان يأتي من ليبيا عبر هضبة السلوم، مرورا بالصحراء الغربية، وقد آمن آلهة ذلك الزمان به كإله يهبط عليهم من السماء.

وفي ذلك قال جعفر النحاس:

«قرئ على أبي يعقوب إ سحاق بن إبراهيم بن يونس، عن جامع بن سوادة، قال: حدثنا سعيد بن سابق، حدثنا مسلمة بن علي، عن مقاتل بن حيان، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**أنزل الله عز وجل خمسة أنهار: سيحون وهو نهر في الهند، وجيحون وهو نهر بلخ، ودجلة والفرات، وهما نهرا العراق، والنيل، وهو نهر مصر، أنزلها الله في عيون الجنة، في أسفل درجة من درجاتها أعلى جناحي جبريل عليه السلام فاستودعها الجبال، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معاشهم، وذلك قوله جل ثناؤه**:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون:١٨].

فإذا كان خروج يأجوج ومأجوج، أرسل الله جبريل «عليه السلام» رفع من الأرض القرآن والعلم وجميع الأنهار الخمسة فيرفع ذلك إلى السماء، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون:١٨].

فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض، فقد أهلها خير الدنيا والدين[١].

إن ما لا شك فيه أن الجميع، قادة، ورؤساء، وكهنة، وشعب كانوا يجتمعون على تعظيم النيل والسجود له، حينما تشكلت العقائد، ولعل من أبرز أعماله، القيام بلعب دور فريد على المستوى الوطني في توحيد مختلف الأقاليم المصرية، وكان المصريون يقولون في صلواتهم:

---

(١)ضعيف جدا: ابن عربي في الكامل (٦/ ٣١٥).

لقد ظهرت بنفسك على هذه الأرض

وجريت بسلام لتمنح مصر الحياة..

يا ساقي الرياض التي..

خلقتها الشمس لحياة جميع الأنعام

إنك تروي الأرض، وإنك طريق السماء

لكنه كان بالنسبة للأمم الأخرى يتسم بصفة الغموض، وأن بين ثنيات أمواجه ذرات خفية تنطوي على طاقة لا يستطيع المرء في مجرد التفكير بالتصدي لها.

وفي محاولة لخبر أسراره ومعرفة مصدره:

«يحكى أن «ملك نقرواش الجبار بن مصرايم» توجه إلى منبع النيل فحفره وأصلح مجراه، وكان يسيح في الأرض، يتفرق من غير حاجز، فهندسه وساق منه عدة أنهار إلى أماكن كثيرة لينتفع بها الناس، وعمل هناك تماثيل من النحاس عدتها خمسة وثمانون تمثالا جامعة للماء حتى لا يخرج ماء النيل عنها، وجعل لها منافذ مستديرة يخرج الماء من حلوق تلك التماثيل، وجعل لها قياسا معلوما بمقاطع أذرع معلومة فتخرج تلك الأنهار ثم تصب في بطحتين فيخرج منهما الماء إلى بطحة كبيرة جامعة للمياه، وجعل للتماثيل مقادير بين المياه ليكون فيها الصلاح لأرض مصر دون الفساد، وقدر تلك على شبه عشر أذرع وكان الذراع يومئذ اثنتين وثلاثين إصبعا، ثم جعل فضلات تلك المياه تخرج إلى مسارب عن يمين التماثيل وعن شمالها، ثم تصب في الرمال وغياض لا ينتفع بها من خلف الاستواء، ولولا ذلك لأغرق ماء النيل ما كان يمر عليه من البلدان قاطبة، وقال : لولا أن ماء النيل يمر في البحر المالح ويكتسب من ملحه لشرب من مائه ما هو أحلى من العسل وأبيض من اللبن».

فهل يمكن الزعم بأن هذه الحكاية جاءت لتجيب على أسئلة الكثيرين وعلى تلك المزاعم التي اهتم أصحابها بالبحث عن مصادر النيل وكيفية نشأته؟

لقد ظل على حال من الغموض لدرجة أن خصوبته وفيضانه انشغل بهما الملوك والخلفاء.

قال الواقدي : إن معاوية بن أبي سفيان قال يوما لكعب الأحبار: هل تجد ذكرا للنيل في كتاب الله عز وجل يعني في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان؟

قال: والذي فرق البحر لموســى إني لأجد في التوراة أن الله يوحي إليه عند ابتدائه وبأمره أن يجري حيثما شــاء الله تعالى ثم يوحى له عند انتهائه، ويأمره أن يرجع راشــدا حيث شــاء الله تعالى، يعني أن الله تعالى يوحي إليه عند زيادته ونقصانه.

وقال ابن زولاق في تاريخه : إن بعض الملوك أمر أقواما بالسير إلى حيث يجري النيل فساروا حتى انتهوا إلى جبل عالٍ والماء ينزل من أعلاه وله دوي وهدير حتى لا يكاد أحد يسمع صوت من في جانبه من أصحابه من دوي الماء، ثم أن أحد القوم تسـبب في الصـعود إلى أعلى الجبل لينظر ما وراء ذلك فلما وصـل إلى أعلاه ضحك وصفق بيديه ثم مضى في الجبل ولم يعد يعلم أصحابه ما شأنه، ثم أن رجلا آخر منهم صعد بعده ليرى ما وراء الجبل وما كان من أمر صاحبه ففعل مثل صاحبه وصفق ومضى في الجبل ولم يعد ولم يعلم أصحابه ما شأنه، فطلع ثالث وقال لأصحابه اربطوني من وسطي، فإذا أنا وصلت إلى ما وصل إليه أصحابي وفعلت كما فعلا فاجذبوني بالحبل فلا أبرح من مكاني، ففعلوا ذلك ، فلما صار في أعلى الجبل صفق، وأراد أن يمضي في الجبل إليهم ونزل عندهم فلما وصل خرس لسانه ومات لساعته.

ومن القصص التي تحدثت عن النيل، أن رجلا يدعى حامد بن عابد أراد يوما أن يصل إلى بداية النيل فظل يمشي بحذائه ثلاثين سنة حتى صادفه رجل كان يصلي على أرض خضراء وكان هو الخضر عليه السلام.

سـأله حامد فأشـار الخضـر إلى قبة بعيدة، اتجه إليها، وكان يخرج من جوف تلك القبة باب نهر يجري إلى جهة من الأرض، وهي سـيحان وجيحان والفرات والنيل، فأراد حامد أن يمضـي إلى ما وراء تلك القبة فأتاه ملك وقال له: قف يا حامد مكانك فقد انتهى إليك علم النيل وما وراء ذلك إلا الجنة، فقال حامد: أريد أن أنظر إلى الجنة، فقال له الملك: إنك لن تستطيع دخولها اليوم، فجلس حامد على شاطئ النيل وشرب منه فإذا هو أحلى من العسل وأبيض من اللبن وأبرد من الثلج.

***

وقال الكندي:

إن النيل أ شرف أنهار الأرض فإنه سقى عدة أقاليم من ديار مصر وماؤه أفضل المياه وبذلك يشهد جماعة من الحكماء منهم ابن سينا وابن النفيس وذكروا أن ماءه يهضم كل المياه الرديئة ويوقي المعدة لأنه يمر على أرض الذهب، وقال بعضهم:

الشرب من مياه النيل ينسى الغريب الوطن، وأعظم من هذا كله ما جاءت به أخبار الشريعة أن منبعه من الجنة تحت سدرة المنتهى.

«وعلى ضفتيه نبتت آلة الحضارة وهى ورق البردي وأقلام القصب فكتب المصريون و سجلوا أعمالهم فتواصلت المعرفة، وثمة خصيصة أخرى هي: أن اختيار النيل لمجراه بين هاتين الصحراويين العظيمتين الشاسعتين جعل المواطن المصري يحتفظ بأهله و يتشبث بأرضه.

وقد عرف المصريون منذ عهد الأسرة الكوشية أن هناك علاقة بين الأمطار السودانية والفضيان، غير أن الاعتقاد الرسمي القائل بأن منبع النيل المقدس، حظى بالأفضلية على التفسيرات المعقولة لذلك المنبع[٢]»
.

ولأجل تقديسه صار له إلها أطلق المصريون عليه اسم: «حابي» وجعلوا للنيل الذي تروى منه الأقاليم القبلية اسم: «حعب رسيت» وأطلقوا على النيل الخاص بالوجه القبلي اسم «حعب محيت» وأطلق العامة عليه اسم «أيور» بمعنى النور، والاسم مشتق من كلمة «أور» المركبة في اسم: «أور الكلدان» تلك البلدة التي ظهر فيها سيدنا إبراهيم عليه السلام في شمال العراق.

وهذه الكلمة بعينها وجدت منقوشة على مسلة الإسكندر ذي القرنين، وجاء ذكرها في اللغة القبطية باللفظ ذاته: «أيور» أي النهر: النيل (ن – ال) ومعناه النهر.

وعند ظهور اسم « سيحور» لم يكن سيحور اسما للنيل كله عند قدماء المصريين كأنوّر وغيره، بل كان اسما لجزء منه، وهو الجزء الواقع في الإقليم الرابع عشر بالوجه البحري الذي كانت قاعدته مدينة ذور، يؤكد ذلك ما وجد منقوشا على جدران معبد إدفو باللغة المصرية القديمة:

---

(٢)للمزيد من التفاصيل، راجع للمؤلف »يوسف على خزائن مصر» مكتبة جزيرة الورد، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.

«وذكر في قصة ستنا المكتوبة بالديموجيقية اسم النيل: (ن..إل)ومعناه النهر».

وأما اسم «سيحور» فلم يكن اسما للنيل كله عند قدماء المصريين.. كان علما على جزء من أجزاء النيل في الإقليم الرابع عشر بالوجه البحري، ثم توسعوا في استعماله فأطلقوه من باب إطلاق الجزء على الكل»[٣].

هذا إلى جانب أيادي النيل البيضاء على المصريين فقد كان فاعلا في حسم قضية وحدة البلاد، وكان ولا يزال الشريان الحيوي الذي ربط مصر والسودان بوشائج القربى والدم والدين:

وهو الذي أخرج عباقرة المهندسين في العصر الحديث، فقد أصبح محمد مظهر ومصطفى بهجت أول مبعوثين مصريين لدراسة الهندسة عام ١٨٢٦ في مدرسة البولتكنيك بباريس من كبار رجال الري ومن بعدهم علي مبارك، وأمين سامي، وحتى سميكة، وعثمان محرم، وموسى عرفه، والشرباصي، وغيرهم مئات، كانوا أقرب إلى أمهر «القادة العسكريين» لتنظيم الري، ومنع أخطار الفيضان[٤]».

كان لدى المصريين تقليد سنوي على مستوى الدولة والشعب لأجل استمرار النيل وعدم خفض معدلاته، إذ حرصوا على أن يقدموا له –سنويا- «عروس النيل- في احتفالية، تقام في طقس ديني، شعبي يشارك فيه كبار الكهنة.

وقد توارث قبط مصر عن الفراعنة هذه الشعيرة، واعتبرها المحدثون من الأعمال الخرافية، وأثبت ابن تُغرى بردي هذه الأسطورة في كتابه: «النجوم الزاهرة» وتعرض لها آخرون في كتاباتهم:

«لما ولى عمرو بن العاص مصر أتاه أهلها حين دخل بؤونة من أشهر القبط فقالوا له: إن لنيلنا عادة و سُنة لا يجري إلا بها، فقال لهم: وما ذلك؟ قالوا: إنه إذا كان في إثنى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من عند أبويها، وأرضينا أبويها وأخذناها وجعلنا عليها من الحلّي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل فيجري.

---

(٣)أنطوان ذكري أمين (النيل في عهد الفراعنة والعرب) مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

(٤) كامل زهيري (النيل في مصر.. وثائق تنتشر لأول مرة) الناشر مكتبة العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، بدون تاريخ ص١٠٣.

فقال لهم عمرو بن العاص: إن هذا لايكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله.

فأقاموا بؤونة وأبيب ومسـرى لا يجري النيل إلا قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء، فلما رأى ذلك عمر وكتب إلى أمير المؤمنين، فأجابه عمر: «قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما قبله، وقد أرسلنا إليك ببطاقة ترميها في داخل النيل إذا أتاك كتابي».

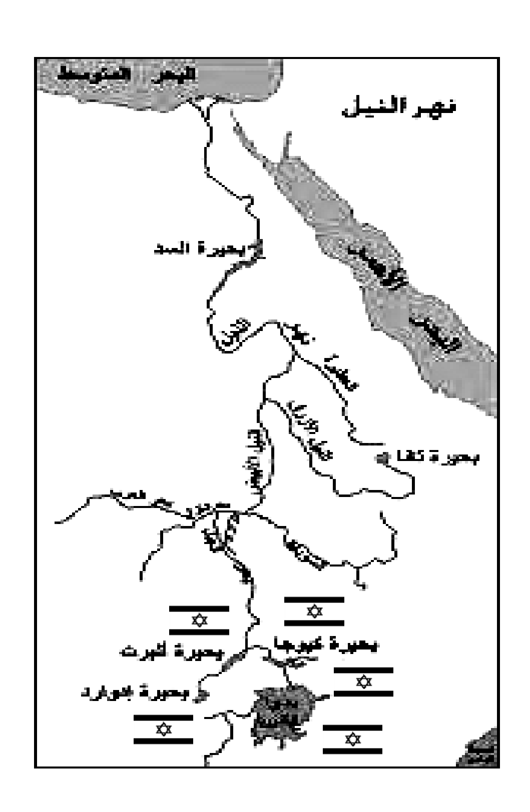
فلما قدم الكتاب عمرو وفتح البطاقة إذ فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصـر، أما بعد، فإن كنت تجري من قبلك فلا تجري، وإن كان الله الواحد القهار الذي يجريك، فنسـأل الله الواحد القهار أن يجريك!».

فعرفهم عمرو بهذا الكتاب، وبالبطاقة، ثم ألقى البطاقة في النيل قبل يوم عيد الصـليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنه لا يقيم بمصالحهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم عيد الصليب وقد أجرى له الله ست عشرة ذراعا في ليلة واحدة، وقطع تلك السنة القبيحة عن أهل مصر(٥)».



(٥)د. محمد حسين هيكل: الفاروق عمر، الجزء الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٠م ص١٨١.

الفصل الثالث
النيل ... ولادة
الشخصية المصرية



لقد سـبقنا المكان إلى المجئ.. من حيث النشـأة والولادة، هو أقدم من حياة كل كائن يعيش على أرض الوطن.

إنه أدرى بنا وبمشاكلنا.. لقد عاش الحياة الرفيعة بأمجادها وعانى من أمراض الانكسار وتحلل كيانه، ثم لا يلبث أن يستعيد عافيته وقواه، حتى ليمكن القول أنه تعرّف على ملامح شخصيتنا وأرهص بمقدمنا قبل أن تأذن الحياة بولادتنا.

كانت جعبته مليئة بذكريات وصـور له التقطت مع آبائنا وجدودنا، حتى ليمكن الزعم، أن شـخصـية هذا الوطن قد اكتملت ملامحها قبل أن يأتي أبناء اليوم.

والأمر ببسـاطة إن نجاحنا صـار رهنا على قدر ما نأخذ منه ونقتطع من معايير، لنعيد إنتاجها عبر كل دورة زمنية، وحسبما يتوافق مع ما تقتضيه الحاجة.

وعلى ضـوء ما تقدمه المعارف في جغرافيا المكان، فإنه –الوطن– في معالجاته للشـخصـية الإقليمية لا يُسقط عن غيرها سمات الإنسانية أو الملامح المشتركة، وتلك القريبة من العادات والسلوك، وهو لا يضعها في إطار صارم:

«فالشخصية –هذه وتلك– مركب معقد للغاية من عدد ضخم من العناصر وتوليفة معينة من السمات والقسمات والملامح والمعالم، فإذا اشتركت شخصيتان مثلا في الغالبية من هذه العناصر والقسمات، ولكن اختلفتا في قلة منها مهما تضـاءلت، فليس «علينا جناح» أن نتكلم عن «تفرد» الشـخصـية في كل منهما رغم التشابه الواسع المدى، ودون أن يعني ذلك أي تنافر أو تضاد بينهما[٦]».

من مظاهر «التفرد» ومعطياته، أن النيل أثرى حركة الواقع، وغذى التاريخ بحضارة حملت مشاعل العمران والتقدم لأمم كانت تعيش في الكهوف.

ومنذ أن اتسـعت رقعة التفكير في الجغرافية المرتبطة بأعالي النيل، بدأت مظاهر الرقي تأخذ سـمتها وانعكس ذلك على ازدهار الشخصية المصرية.

---

(٦)جمال حمدان: (شخصية مصر) دراسة في عبقرية المكان، ص١٦.

وبالحق، إن سعي المصريين للتعرف على أعالي النيل والكشف عن مجاهله، جعل تقدمهم الإنساني يترامى إلى ما وراء حدود الأقاليم المصرية.

انتهى بهم التفكير إلى الشلال، أما ما كان يقع وراء الشلال فعالم من الأسرار والغموض.. ما حذقوه ودرجوا عليه وعرفوه، أنهم كانوا يعيشون في واد خصيب، تحده الصحراء من جانبيه والبحر من شماله والجنادل من جنوبه،وإذ تقدموا خطوة، توهموا أن هناك بحرًا في أسفل الأرض متصلا بالنيل (هو الذي تغيب فيه الشمس والكواكب مساء، ثم تسبح ليلا وتعود فتظهر منه في الصباح).

وعلى صدر النيل، تعلموا امتطاء الأمواج فعرفوا قديما الأراضي الأرتيرية وبلاد الصومال وغيرها، وبذلك كان النيل أول من أخرجهم من حياة العزلة إلى خصوبة الانفتاح على العالم الخارجي.

وكان تأثيره الديني على البشرية قاطبة، أنه تجاوز وعي مراحل أرباب الشمس والكواكب والأرض، وفي قصيدة للملك إخناتون يمجد فيها الإله الواحد، قائلا:

أنت خلقت النيل في العالم الأرضي

وأنت أخرجته بأمرك فتحفظ به الناس

ما أبدع تدابيرك يا رب الأبدية!

في السماء نيل للأمم الغربية.

ولماشية البلاد الأخرى ودوابها

ولكل ما يمشي على رجلين.

أما النيل الذي يروي مصر

فإنه يجيء من باطن الأرض.

ومن قصيدة أخرى تعود إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، نقتطف منها هذه الأبيات:

حمدا لك أيها النيل الذي

يتفجر من باطن الأرض

ثم يجري ليغذي مصر

فهو الذي يسقي المروج

وقد خلقه رع لكي يطعم كل دابة وماشية،

ويرسل الماء إلى الجهات البعيدة

والويل للأرض ومن عليها

حين يقلّ ماؤه

ويجئ فيضانه شحيحا قليلا

هنالك تهلك النفوس

وينادي الجميع بالويل والثبور.

هذا النيل، صنع من جغرافيته مكانا فريدا،انصهرت في أجوائه الشخصية المصرية، وعلى ضفاف النهر، وعلى الحوض الذي يحتويه،تعيش شعوب لها في مياهه حياة وأحواض، قد تكون بعيدة أو قريبة من مجراه، وتشكلها تضاريس وجبال صخرية (تفصل ما بين حوض هذا النهر بروافده وجداوله وبين حوض نهر أو أنهار أخرى) لتصنع بيئة جغرافية تحدد معالم أقاليمه الثانوية ودون الثانوية، وتحدد معالمه وملامحه النوعية (وتوزيعاته وعلاقاته المكانية).

وللنيل فضل على المصريين في صياغة العقائد و الديانات، ولولاه لما تعلموا الإبحار على ظهر السفن التي كانوا يصنعونها –أول الأمر– من أعواد النبات فيصيبون من أرزاق النهر ما يشتهون، وحين يغدون على صفحته يكونون قد حملوا على ظهره الذهب من أرض «كوش» ومن النحاس والفيروز من طور سيناء،ومن ألوان الصخور المختلفة من محاجر الوادي في الجنوب والشرق ما يصنعون منه المسلات، والأعمدة، والتماثيل لأناس نصفهم إلهي والنصف الآخر بشري.

لا أحد كان يعلم أن الآثار الفرعونية ستدعى يوما للشهادة ضد من زعموا في كتبهم أن الإنسان خلق في ٢٣ أكتوبر سنة ٤٠٠٤ ق.م، كما تصدت الآثار المصرية لمزاعم الصهيونية حول البنائين الذين هبطوا من الفضاء لبناء الأهرامات، وان أحجارها تطايرت في الفضاء (بفعل تأثير الحروف العبرية والقبالة اليهودية).

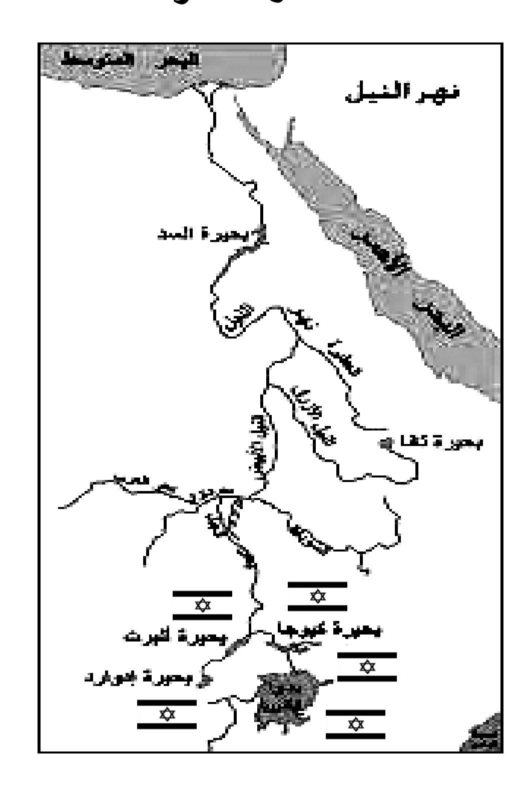
لقد رفض «دينون» أحد علماء الحملة الفرنسية على مصر،الترتيب الزمني الوارد في الكتاب المقدس والذي تقره الكنيسة،واستقى أفكاره من ينابيع الفن المصري (الآثار) الموجودة في دندَرة، كما أن علماء الآثار في الغرب يؤكدون:

«بدأ عصر نارمر (الملك مينا) في الألف الرابعة قبل الميلاد (حوالي ٣١٠٠ ق.م) وسبقته حضارات أخرى كثيرة، لم تكن مصر فيها موحدة تحت تاج واحد،بل لقد كانت مصر عامرة بالسكان في العصر الحجري القديم (على وفق التقسيم الجيولوجي الذي أخذ به الجيولوجيون)، فكيف إذن نفهم أن الله أو الثالوث على وفق العبارة الواردة في الكتاب قد خلق الإنسان في ٢٣ أكتوبر ٤٠٠٤ق.م في الساعة التاسعة صباحا؟[٧] » .

---

(٧)بيتر فرانس (أوربا والآثار المصرية) ترجمة إبراهيم محمد إبراهيم، راجعه وقدم له د. عبد الرحمن الشيخ، سلسلة الألف كتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م ص٩.

الفصل الرابع
النيل .. مشاكل
القارة السوداء



من معجزات الله وأســراره، أن أخرج المخلو قات من الـماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ٣٠﴾[الأنبياء:٣٠]... الأنبياء، وحين بحث الإنســان في نشــأته عثر عليه في الهواء في حالات ثلاث، عُرفت بالغازية.. السائلة. الصلبة، في الأولى يعرف ببخار الماء المتصاعد من كل السطوح المائية حيث يعيد إنتاج نفسه من خلال كتل السحاب:

«وبعض الماء موجود في الهواء في الحالة اللامرئية للبحار وفي كل الأوقات وفي كل مكان، ولكن تختلف الكمية إلى حد بعيد، فالهواء الذي يهب من البحر إلى الشــاطئ يحتوي عادة على كميات من الماء أكبر من ذلك الهواء الذي يهب من الشــاطئ إلى البحر وفي نفس الجزء من القارة، والهواء الدافئ أقدر على حمل مقدار كبير من بخار الماء التي يمكن أن يحتويها الهواء في درجات الحرارة المختلفة [٨]» توصـل الإنسـان لمعرفة أن الماء موجود في الهواء، وبالنظر في تراكم السحب عرف أنها تتكون من التيارات المتصاعدة، حتى تصل إلى «مستوى التكاثف» ثم يزداد التكوين العلوي للسحاب من تصاعد الهواء المستمر (وطالما واصل الهواء صعوده فوق مستوى تكثيفه، فإنه يحمل إلى أعلى قطرات الماء الدقيقة التي يتكون منها السحاب).

وهناك عدد هائل من أشكال السحب، منها (السحاب المتراكم أو شبيه القرنبيط) ومنها ما يسمى سمحاق طبقي و سمحاق ركامي وهى سحب عالية تبلغ ٢٠٠٠٠ قدم، وهناك من السحب ما يسمى سمحاق طبقي متوسط وركامي متوسط يبلغ ارتفاعها عن سطح الأرض بنحو ٦٥٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ قدم.

وللظواهر المائية في الجو عناوين كثيرة، منها: الثلج الذي يصــل إلى الأرض، وإذا ارتفعت درجة الحرارة فإن الثلج يصير خليطا من الثلج والمطر، أو مجرد مطر في الوقت الذي يصل فيه إلى الأرض.

وتبعا للعلاقة بين الضباب والمد والجزر، وتبخر المطر، وما يصحبه من تبريد للهواء الذي تتساقط خلاله القطرات، فإن متوسط المطر، يزيد كثيرا في منطقة السدود عنه في القطر المصري، (بينما يبلغ متوسط المطر في القاهرة ٣٢ ملليمترا في العام، إذا به في شامبي يبلغ ٨٣٠ ملليمترا ومنجلا ٩٥٩ ملليمترا).

---

(٨)س. ر. برجس (الأرصاد الجوية لرواد البحار) ترجمة مشيل زكي رزق الله، راجعه د. محمد جمال الدين الغندي، الناشر مؤسسة سجل العرب ص ٤١، ٤٢.

وتنحصر مصادر المياه في ثلاثة حسب ترتيبها: مياه النيل التي ترد إليه من مصادرها الطبيعية، ثم من المياه التي ترشح منه وتملأ الفراغات البينية لطبقات الرواسب القديمة التي يضمها المهد الصخري للنهر، ويطلق عليها المياه التحت أرضــية، ثم المياه المختزنة في طبقات الحجر الرملي النوبي والتي تنفجر في صــورة آبار ارتوازية في الصحراء الغربية، ومياه الأمطار المختزنة تحت تربة المنطقة الساحلية الشمالية.

تقدر الهيئات العلمية نزول الأمطار على الأرض من كل ســنة بمقدار ٣٨٠,٠٠٠كم٣، يســقط جزء منها على البحار والمحيطات في نحو ٢٨٤,٠٠٠كم٣، و٩٦,٠٠٠كم٣ على اليابســة، والفارق بين كمية المطر وكمية البخر على اليابســة يفيض إلى البحار والمحيطات للمحافظة على منســوب الماء فيها في كل فترة زمنية محددة:

«وعلى ذلك فإن إنزال المطر، يبقى –في الحقيقة– ســرا من أســرار الكون لا يعلمه ولا يرتبه إلا الله، وإن جاهد العلماء في محاولة فهم الحقيقة إنزال المطر من الســحب المحملة بقطيرات الماء، ولفهم ذلك لابد أولا من فهم كيفية إنشاء السحب بصفة عامة، والسحب الممطرة بصفة خا صة، وهى عملية خارجة تماما عن طاقة القدرة الإنسانية مهما تطورت معارف الإنسان، وارتقت تقنياته[٩]»

وترصد المختبرات العلمية، خواص الماء الكيميائية والفيزيائية وكان من أهم نتائجها:

إن البناء الفريد للماء يجعل جزئياته متماســكة ومرتبطة بروابط هيدروجينية، ويصــبح كل جزئ مرتبطًا بأربعة جزئيات مجاورة، وكل منها بأربعة، وهكذا تبدو جميع الجزئيات مرتبطة ببعض في شبكة فراغية متماسكة، ولولا هذا لكانت درجة غليان الماء (٨٠٠م) ودرجة تجسيده (١٠٠٠٠٠م) ولاستحال وجود الماء على شكل سائل وصلب على سطح الأرض ولاستحالت الحياة فمن غير الله يعرف خواص كل من الأوكسجين والهيدروجين ويعلم أنه إذا شكلا جزئيا فإنه لن يتواجد بحالة سائلة أو صلبة إلا إذا كانت الرابطة التي تربط بينهما رابطة هيدروجينية قوية.

من المعروف أن درجة غليان الماء مرتفعة وذلك لقوة رابطته التشــاركية فهو يمتص قدرة حرارية كبيرة لكي يتبخر حيث كل كيلو جرام من الماء الســائل يحتاج إلى ٥٤٠ حريرة ليتحول إلى بخار، وهذه الخاصــية تعطي الماء دورا فريدا في نقل القدرة من مكان لآخر، فالماء الذي يتبخر من المحيطات تسوقه الرياح مئات وآلاف الكيلو

---

(٩)د. زغلول النجار، مقال جريدة الأهرام.

مترات إلى أماكن باردة فعند تبرد البخار وتحببه وتساقطه على شكل قطرات مطر، ينشر معه الطاقة التي امتصها أثناء تبخره فيساهم في رفع درجة الحرارة في تلك المناطق وتلطيف حرارة الجو، وكذلك في أثناء تساقط الثلوج، فكم هذه الحرارة المنتشرة كبيرة إذا علمنا أنه يتبخر كل عام ٥٢٠ آلاف كيلو متر مكعب من الماء.

وهناك خاصية فريدة أخرى للماء تتمثل بتمديد الجليد أثناء تجمده فيطفو على سطح الماء، ولهذه الخاصية البديعة فائدة عظيمة لتلك الكائنات التي تعيش في المناطق الباردة والمتجمدة، فعندما تنخفض درجة حرارة الماء في فصل الشتاء في الأحواض المائية (نهر.. بحيرة.. بحر) نتيجة انخفاض درجة حرارة الغلاف الجوي المحيط، تتجمد طبقة الماء السطحية فتتمدد وتزداد كثافتها فتطفو على سطح الماء وتشكل عازلا طبيعيا بين الغلاف الجوي والماء البارد والماء أسفل الحوض فتساهم تلك الخاصية في خفض درجة حرارة الحوض واعتداله مما يحول دون تجمد الحوض المائي فيساهم هذا العازل الطبيعي إضافة إلى الحرارة المنتشرة من تجمد الجليد على تلطيف حرارة الماء والمحافظة على حياة الأحياء المائية وتجنبها خطر التجمد والموت.

ويعود الفضل للنيل، فمصر هبة النيل، ولولاه لانعدمت الحياة فيها، ثم إنه يعود الفضل اليه في ربطه بين مصر وبين الدول العربية، ويرجع ذلك إلى حقب بعيدة في القدم، حيث حظيت مصر بشهرة واسعة في عالم البحار منذ عهد الفراعين، وكانت أساطيلها تذهب إلى بلاد العرب في مهام حربية وتجارية، وعلى اعتبار أنها صارت منذ ذاك الوقت مركزا للتجارة العالمية:

«وقد أثبت الأثريون ما سجلته نقوش الكرنك وطائفة من المعابد المصرية من سفن وما تحمل من تجارة، كما أثبتوا ما سجلته نقوش الدير البحري من قيام الملكة الفرعونية (هاناسو) بشق طريق ملاحي يصل النيل بالبحر الأحمر عند خليج السويس مارا بالبحيرات المرة، وفي هذا الطريق الملاحي كانت السفن تنتقل من البحر الأبيض والأحمر، تحمل تجارة مصر والغرب إلى الشرق، وتحمل تجارة مصر والشرق إلى الغرب[١٠]» ويشهد سر عظمة نهر النيل لنشأته وطبيعة تطوره الفزيوغرافي، وما صاحبه من مكونات مهدت لولادة حضارة من أعرق الحضارات الإنسانية.

---

(١٠)د. محمد حسين هيكل: (الفاروق عمر) جزء٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٠ ص٦٦.

وحين يمعن الباحث النظر إلى النهر وواديه من الناحية الجغرافية، والجيولوجية، يراه ينبع في المنطقة الاستوائية المرتفعة، وإذا أدار النظر فيما حوله، يرى أنه ليس أطول أنهار العالم، بل ويضم إلى ضفافه (٩) دول عربية وإفريقية، تستغرق جميعها الهموم والمشاكل الاقتصادية، وعدم عدالة توزيع الثروة، وما خلفه لها الا ستعمار بعد رحيله من تناقضات اجتماعية، كانت نتاجا لمرحلة ما بعد التحرر الوطني، وما تستلزمه من تكريس الجهود، وحشد الطاقات لوضع الخطط التنموية وما تلقاه شعوبها في سبيل ذلك من عقبات، وأزمات، تصل –في بعض الأوقات– إلى التهديد بشن الحروب بين بعضها البعض، مع اشتعال أتون المعارك ضد دول الجوار.

في لحظة مستعرة بعماء الغضب، وعدم القدرة على انتزاع فتيل الانقسام وانشطار الأوطان إلى كيانات ودويلات قزمية، ينجح من يريدون لشعوب حوض النيل الهلاك، وينسى الجميع أنهم أشقاء، وجيران، وأن الطبيعة أغدقت عليهم بكيان حيوي، يسترسل بينهم، مثل جسد واحد مترامي الأطراف، وما يجب التفريط فيه، وتمزيق أوصاله.

كما أن لنهر النيل خاصية فريدة، تجعله لا مثيل له بين أنهار العالم، إذ يبلغ طوله ٦٨٢٥كم واتجاهه العام من الجنوب إلى الشمال فيما بين خطي طول ٢٩درجة، ٣٩ درجة شرقا.

لكن الاستعمار الذي سهر على نهب موارد الشعوب، عمل قبل رحيله عن إفريقيا، على إشاعة العزلة، وبث بين أبناء الوطن الواحد روح العداء والكراهية، واهتم بتعميق فجوة الخلاف والتناقض، ودعم تقاليد الجماعات الاثنية التي كانت سائدة منذ العصر الحجري، أي ما ينيف على نحو ١٢ ألف عام.

«كانت هناك ثلاث سلالات متميزة في أفريقيا هم:

– شعب الكولي Kholi في جنوب إفريقيا.

– شعب «التاوا» Twa من الأقزام في أحراش الكنغو.

– شعب «الزنوج» Negios وهى الشعوب الطويلة في منطقة البحيرات العظمى وحوض النيل[11]» .

كان من بين هذه القبائل، من يهتم بالرعي، ومن يهتم بالزراعة، ومن كانوا من أصحاب السيادة الذين تعلموا اللغة الأجنبية، وتلقوا قسطا من العلوم في النظام الإداري الاستعماري.

ويعج السودان بالعديد من السلالات ذات الديانات واللهجات المختلفة، وأبرز هذه السلالات: النيليون، والنيليون الحاميون، والسودانيون الغربيون، ويتكلم هؤلاء أكثر من سبعين لهجة محلية.

ولا شك أن الخلاف في الجنس، واللغة والدين، قد يفضي إلى اتساع بؤر الصراع، ومما زاد الطين بلة أن بعض دول الجوار، رأت من زاوية المصلحة القبلية، وانتصرا لإعلاء هذه المصلحة أن تدعم بعض فصائل التمرد ودعاة الانشقاق، فكانت كينيا وأوغندا من أوائل الدول التي ساعدت الانفصاليين، ثم جاء منجستو رئيس دولة إثيوبيا في تسعينات القرن الماضي ليدعم قوات جون جارنج التي كانت تنادي بإقامة دولة جنوب السودان.

بين كانت إثيوبيا تعاني بسبب وجود أكثر من ٧٥ قومية وجماعات عرقية تعيش على أراضيها، وفي نفس الوقت، ظلت تعتبر السودان البلد المجاور لها يكن لها العداء، والخوف من تأثير السياسة الإسلامية لحكومة السودان على الشمال الأثيوبي.

يضاف إلى ذلك حزمة من المشاكل المترامية على طول الجانب الجنوبي الغربي، والخوف من توسع رواندا وبورندي داخل الأراضي الأثيوبية، بدعم من القبائل النيلية المتاخمة للحدود الأثيوبية مع أوغندا.

ولدى إثيوبيا ١٢ نهرا، بنيت عليها أكثر من أربعة سدود، ولدى مصر نهر واحد، هو نهر النيل، ولدى مصر سد واحد، هو السد العالي، وتحصل إثيوبيا على ١٢٣ مليار متر مكعب من المياه، بينما لا تزيد حصة مصر على ٥٥ مليار متر مكعب.

على الرغم من ذلك، نجدها تضج بالشكوى، بسبب أن ثلث أراضيها –وهى قريبة من مساحة مصر– تصاب بالجفاف، فما الذي يمكن قوله إذا كان ٩٥٪ من الأراضي المصرية، تعيش في جفاف شبه دائم؟!

---

(١١)د. سيد محمد موسى حمد (مصر ودول حوض النيل) مكتبة الأسرة، سلسلة العلوم الاجتماعية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٠م ص ١٥٧.

في ذات الوقت، يفقد الكونغو –سنويا- أكثر من ألف مليار متر مكعب من المياه، حيث تتسرب إلى المحيط.

وإذا استرسلنا في كشف الصراعات الداخلية بين أوغندا وكينيا وتنزانيا، والكونغو ورواندا وبورندي فإن ذلك لا يعد ولا يحصى، إنما على وجه الإجمال فإن هناك الصراعات الأثينية، والعلاقات المشوبة بالتوتر بين هذه الدول، واتهام كل جانب للآخر بأنه زود القبائل المنشقة بالأموال والسلاح، أو أنه أفسح لهم مكانا للعيش على حدود بلاده، انتظارا لأية فرصة تسنح للانقضاض.

وفي خضم الصراعات لا يمنع ذلك من وجود صلة ما، فقد يجلس فريق من هؤلاء على موائد المفاوضات، للتوقيع على اتفاقيات ملاحية.. تجارية.. اقتصادية.. تعاون علمي.. تعاون ثقافي، ثم يدعون في مؤتمراتهم الصحفية لدعم التعاون الإقليمي، والتشاور لأجل التنسيق في المواقف تجاه القضايا الإقليمية ذات الاهتمام المشترك لدول حوض النيل.

إزاء هذه المشاكل، احتفظت مصر بدورها الحميد في فض المنازعات واحتواء الصراعات، حين تدخلت –ضمن قوات دولية- للحفاظ على الاستقرار في منطقة حوض النيل، وهو ما تم ما بين أعوام ١٩٦٣، ١٩٧٨ في الكونغو لاحتواء التمرد في إقليم كاتنجا، كما شاركت مصر بصورة مؤثرة لمساندة الشرعية في بورندي عقب أحداث الصراع الأثني بين الهوتو، والتوتس في شمال البلاد عام ١٩٨٨، و ساندت مصر الشرعية في رواندا عقب نشوب الحرب الاثنية بين التوتس والهوتو في أكتوبر ١٩٩١.

إن أمن ومستقبل القارة الإفريقية عقيدة وإستراتيجية تهتم مصر بتفعيلها، ولم تدخر في هذا الصدد وسعا للحفاظ على وحدة أراضيها، وهو ما يخدم المصالح القومية لمختلف دول حوض النيل.

غير أن المتغيرات العالمية –في تسعينات القرن الماضي- فاجأت الجميع، حيث شرعت الإمبريالية العالمية في نشر خرائط لكيانات تتمخض عن شتى النزاعات الإقليمية والمحلية، وبدعم لوجستي حسب ما تقتضيه سياسة العولمة ومصالح الولايات المتحدة، ودعمها لإقامة: شرق أوسط جديد، لم تكن مصر إلا واحدة من تلك الدول التي يتهددها خطر الغزو الأمريكي، نظرا لموقعها الجيوبولتيكي.

إذ أنها تطل على قارة أسيا وإفريقيا، وأوربا، ويميزها نيل يتدفق في شرايين أوديتها.

وبغض النظر عن طوله وعرضــه، هناك ما يميزه عن غيره، حيث توجد الحواجز الطبيعية التي جعلت من سـكان جنوب الوادي –لسـنوات خلت– يعيشـون في شـبه عزلة عن إخوتهم في الشـمال، وفي الشـرق، وفي الغرب، تمتد صحراء شا سعة، جدباء في معظم أرا ضيها، بينما يعوق دخولهما من ناحية الجنوب مجموعة من الشـلالات الواقعة على مجرى النيل، ثم يشـق طريقه إلى مناطق لها تاريخ يمتد إلى أكثر من ٦٠٠٠ سـنة، مؤكدا أن تاريخه يمتد بين جنبات مدنية الجزء الشمالي من القارة الإفريقية فيتدفق من هضاب الحبشة، ويمر بالمناطق الحارة بأعلى السودان، إلى أن يصل مصر من الجنوب إلى الشمال.

والمتابع لخطوط تدفقه، يرى بعض منابعه وهى تمضـي في أخاديد، ثم يمر في منطقة حوض الجبل والغزال ذات المناخ شبه الاستوائي، ليلتقي بعد ذلك من الشرق بمنابعه الحبشية:

«وتصل مساحة حوض صرفه إلى ٢,٩٦ مليون كيلو متر مربع، أي ما يعادل عشر القارة الإفريقية، ومع ذلك فإن إيراده يعادل بالكاد لإيراد نهر الراين التي لا تشـكل مسـاحة تصـريفه إلا ١,١٣ تقريبا من مسـاحة تصريف النيل[١٢]» .

كما أنه يشكل الظاهرة الجغرافية الكبرى البارزة التي تتضاءل إلى جانبها كل ظاهرة جغرافية أخرى، وأنه لا يشتمل على إقليم واحد، بل يشكل عدة أقاليم، بيد أن الأبحاث التي عالجت واقع النيل، انصبت على ثلاث مناطق:

«هى المنابع الاستوائية، والمنابع الحبشية، ثم النوبة ومصر، وأمكن بالتدريج إجراء المقارنة، والمعادلة بين النتائج التي توصـل إليها الباحثون في كل من تلك المناطق، بحيث إننا نسـتطيع الآن أن نخرج بصـورة مبسطة لقصة نهر النيل، وتطوره الجيولوجي، وهى قصة لا تزال غير مكتملة وغير واضحة في بعض نواحيها، ولكنها مع ذلك فقط تعطي فكرة عامة عن ذلك التطور[١٣]»

وبمقارنة النيل بغيره من الأنهار، نجد نهر الأمازون يبلغ طوله أربعة آلاف ميل، وهو يقترب من طول نهر النيل، لكن حوض الأمازون يقع معظمه في إقليم واحد تقريبا، ومنطقة واحدة هى المنطقة الاستوائية.

---

(١٢)د. رشدي سعيد وآخرون (مركز البحوث العربية بالاشتراك مع دار الثقافة الجديدة ١٩٨٨).

(١٣)د. سليمان حزين (نهر النيل تطوره الجيولوجي وأثر ذلك في نشأته الأولى) المجمع المصري للثقافة العلمية، ص٧.

«أما النيل فمناطقه الطبيعية متعددة، لأن خطوط العرض التي يخترقها متعددة جدا، فمن الأقاليم الاستوائية إلى الأقاليم المدارية، إلى السهوب والأعشاب إلى الصحراء المجدبة إلى البحر الأبيض المتوسط، ثم لو أضفنا إلى هذا لإقليم الحبشة، لكان لدينا ما لا يقل عن ستة أقاليم طبيعية مختلفة يضمها حوض نهر واحد[١٤]»

وخلاصة القول إن نهر النيل هو نهر واحد، لكنه ينبع من أكثر من مصدر ليضخ في شرايين مصر الحياة، وإلا صارت مصر من تلك الصحاري الشاسعة التي شاءت الطبيعة أن تقسمها إلى قسمين في واد ضيق، يتفاوت عرضه بين كيلو مترين و١٠كم، ويبلغ أقصى عرض له عند كوم أمبو حيث يصل إلى أكثر من ١٥كم.

قد يكون هذا الوضع الطبيعي أحد الأسباب التي حدت بالبعض إلى التفكير في أن الوطن المصري يمكن تقسيمه إلى عدة أوطان محلية:

«وإن يمثل كل منها إقليما جغرافيا صغيرا، كان له دوره الخاص في نشأة المدينة وتطورها، ومن تلك الأقاليم جميعا يتكون هذا الوطن المصري الذي يربط النيل بين أجزائه بحيث يقيم بعضها بعضا، وقد يكون من المفيد أن نشير إلى تلك الأقاليم إشارة تساعد على تفهم قيمة العامل الجغرافي في كل منها[١٥]»

كانت أوضاع مصر قبل وحدة القطرين على يد الملك مينا، تتبنى الأخذ بتلك المفاهيم فجاءت وحدة قطري وادي النيل كرابطة طبيعية، وتاريخية قضت على ما سلف، وسارت مصر بروح الاستفتاء الروحي الذي يحول المشاعر إلى إرادة حرة جامعة، تلم بالجزئيات، وتعيد بشتى التفاصيل النسيج الوطني إلى جسد الأمة.

تلكم الحياة التي بلغت الذرى منذ ما ينيف على سبعة آلاف سنة، وغدت على يقين بأن الحياة الدنيا، ما هي إلا محطة للانطلاق إلى حياة السعادة والنعيم في عالم السمو الأبدي، لذلك كانوا يسمون البيوت التي ولدوا فيها: (منزل عابر الطريق)، ويطلقون على المقبرة التي كانت تبنى لشخص توفى: (بيت الأبدية).

---

(١٤)د. محمد عوض محمد (نهر النيل) سلسلة العلوم الاجتماعية، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨ ص٣٥.

(١٥)د. سليمان حزين (حضارة مصر.. أرض الكنانة).

كانوا على إيمان بأن كل شـــيء في حياتهم مآله إلى الزوال، ومع ذلك لم يعتريهم الســأم، أو يصــابوا بروح اللامبالاة، بل طوروا أدوات الإبداع، والابتكار، والتوق للخلود حفزهم على البناء والعمران.

هذا ما يتنافى تماما مع ما ذهب إليه بعض البحاثة المـ صرولوجيين بأن النيل أر ضخهم لواقع الأرض التي تطأها أقدامهم، وأنه لقنهم عبادة الطغيان وتأليه البشر.

من المؤ كد أن النيل علم المصــريين طهارة الجســد ونقاء الروح، وتخليص النفوس من الأر جاس، وعلمهم الإبحار في فضاء الله وملكوته، وجمّل حياتهم بالمواظبة على العبادات وقهر الطغاة.

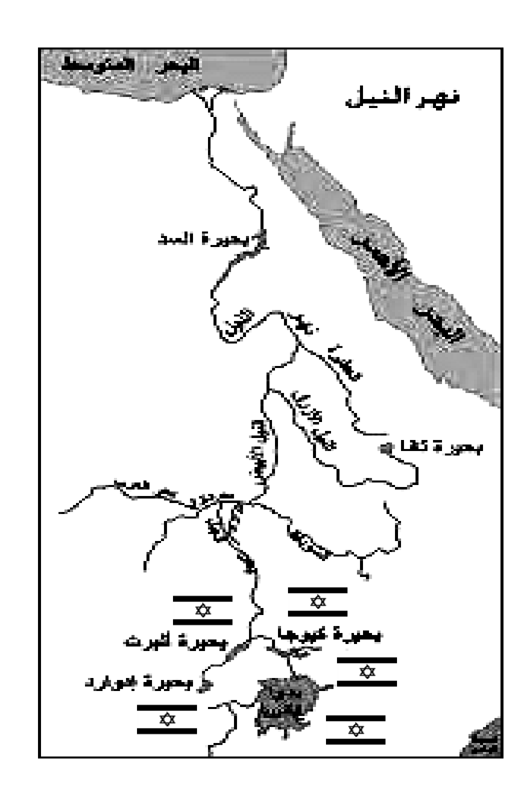
يـضاف لذلك أن النيل كان مركزا للاتـصال بين مختلف الـسلالات، ومـصبّا للحركات الجنـسية، لوقوعه بين مواطن السلالات الثلاث: المغولية.. القوقازية.. الزنجية.

«وكان لموقعه الوسط في صرة العالم القديم، ولنمط تضاريس «الممري» أثر كبير في جعله «ملتقى البشرية» أكثر منه معبرا أو ممر جنسيّ، وفضلا عن كونه مصبا للحركات الجنسية فإنه –بحق– منبع للحركات الدينية، ومركز لتصديرها، كمنطقة وسطى ظهرت فيها الأديان السماوية الثلاثة ثم انتشرت في كل أرجاء العالم القديم ثم الجديد[١٦]».



(١٦)جمال حمدان »شخصية مصر.. دراسة عبقرية المكان» ص١٧.

الفصل الخامس
معالم الأمكنه على شواهد القرى



ولدت على ضفاف النيل آلاف القصص والأساطير، منها ما كان يتغنى به الفلاحون في ليالي الحصاد، ومنها ما جرى على ألسنة الرواة على مصاطب الفلاحين، حينما كانت المصطبة تؤدي دورا فريدا في حياة القرية.

قبل أن تتحول القرى إلى بيوت تقام على أعمدة خرسانية منذ مستهل ستينات القرن الماضي، كانت أبواب البيوت لا تغلق في وجه أحد خلال النهار والليل، وقد استغرقتها -حديثا- أشكال المباني في المدينة، فأخذت منها جانب العزلة والانغلاق.

كان ذلك إيذانا بتفتيت وحدتها، ونسى من ظلوا هناك واجهات البيوت التي كانت لا تقام إلا وقد التصقت بها المصاطب.

والمصطبة عبارة عن مستطيل من الطين والطوب اللبن، وقد ترتفع عن سطح الأرض حوالي متر تقريبا، ويمتد طولها إلى أكثر من ثلاث أمتار.

لم يكن هناك جدل يدور داخل البيوت، إنما العادة جرت أن تجري مناقشة المشاكل – سواء كانت عائلية أو عامة- على جسد المصطبة الطيني، وعليها كانت تطرح القضايا المتنازع عليها بالنسبة لنوبات الري وفتح سدود المراوي، أو لعقد الصفقات من بيع، وشراء، وزواج.. إلخ.

وكانت المصطبة تقوم بدور مؤثر وتنشيطي يشحذ الوجدان، عندما يلتف الفلاحون حول الراوي، وهو غالبا ينشد الأهازيج وسيرة الأبطال الشعبيين كاشفا حقائق الشر التي لا تفلح في زعزعة التوازن الذي تتسم به عقول من يعمر صدورهم الإيمان.

وقلما تخلو جلسات المصطبة من راو يجيد الحكي في كل شيء يتصل بحياة الإنسان، وإن كان لم يصل في استرساله القصصي وحكاياته إلى كنه النيل أو التعريف باسمه، إذ أن العلماء ذات أنفسهم قد اختلفوا حول مصدره واشتقاقاته.

فهو يعرف عند الإغريق باسم غير الذي عرّفه الرومان به، فمادة اشتقاقه إذاً مجهولة (اللهم إلا أن يكون الاسم تصحيفا لكلمة «نخل» في لغة العبرانيين).

ولا ريب أن التراث الديني والقصصي خرج من أعماق النيل، ولعل من أشهرها أسطورة أوزوريس وهى تعالج قضية الخير والعادلة في حياة المصريين، حيث لم تكن وقفا على حياتهم الدنيا وحسب، بل كانت متصلة بآمالهم في خلود الآخرة:

«فالميت لا يصل إلى رحاب أوزوريس لينعم بالجنة إلا إذا برّأ نفسه من كبائر الإثم، أمام قضاة الآخرة الذين يبلغ عددهم اثنين وأربعين، يمثلون أقاليم الديار المتحدة التي صنعها النيل وأقامها على ضفتيه وبين زراعته المترعة»[١٧].

بلغ اهتمام القصص المستوحاة من جيشان النيل وفيوضاته قدرا هائلا من التعبير عن توق الإنسان، في مسعاه اليومي، للحصول على الخلود،ولم يكن الغرض من وراء معالجة هذه القصص التسرية المبتذلة، ولا ملء ساعات الفراغ بتوافه الأمور، بل كانت غايتها الارتقاء بالإنسان في سعيه للبعث والخلود، كما جاء في أسطورة أوزوريس، وأسطورة «البعث» التي وضع العلماء لها اسم«أسطورة هلاك البشرية» وأسطورة: «الحق الباطل»، وغيرها الكثير.

والأسطورة على بساطتها، كانت تعني بإبراز الصراع الأبدي بين الخير والشر، بين أوزوريس سلطان الضفاف والوادي الأخضر،وبين أخيه ست سلطان الصحراء والجدب، ومعظم الذين تناولوا هذه الأسطورة بالتحليل يرون كيف كان أوزوريس حريصا على تدفق نهر الخير، وعلى عدم التنازل عن سلطان الدنيا إلا ليجلس على كرسي الآخرة، فهو في الدنيا يرعى مصالح البشر، ويعمل على إشاعة العدل والحب، وأن يكون في الآخرة إلها رحيما.

الأمر الذي أثار حفيظة ست فاندفع لمحاربة أخيه بمختلف أدوات الشر حتى قتله وقطع أوصاله وبعثرها على عرض النيل وطوله.

ويميل الإنسان للأساطير ويحب أن يستعيد أحداثها،يضاف إلى ذلك أن للأسطورة في الحياة وظائف عدة منها:

---

(١٧)د. أحمد بدوي (النيل عند الفراعنة) نقلا من كتاب (المجمع المصري للثقافة) بدون تاريخ.

«محاولة تفسـير ما يسـتعصـي فهمه على الإنسـان من ظواهر كونية،تفسـيرا يقوم على مفاهيم أخلاقية أو روحية.

إعطاء تفسير قصصي شبه منطقي لتجارب الإنسان في حياته اليومية.

للأسطورة أيضا وظيفة نفسية ترتبط بأحلام البشر وتصوراتهم الرمزية،وتومئ إلى تجارب الإنسان النفسية في الحياة وإلى مخاوفه وآماله[١٨]» .

لقد أحبها الإنسان، لأنها تحمل إليه مختلف عناصر الحياة بأفكارها المتضاربة والموروثة من الأسلاف:

«على أن الأسـطورة غير الخرافة، إذ أن الخرافة تعني القصـة الكاذبة التي لا يقبلها العقل، مثل باب (تكاذيب العرب) الذي عقد له المبرد فصلا خاصا في كتابه (الكامل) [١٩]».

لا أحد إذا يشك في أن الأسطورة خرجت من بطن النيل، فهى مصرية خالصة، ويعود الفضل للنيل الذي شحذ عقول المصريين، ولقنهم قواعد الحساب، وتوزع مختلف الزراعات على فصول السنة، وأبصرهم بفوائد النظام الإداري لكي تسـتفيد منه الأقاليم المصـرية في إدارة أجهزة الحكم، وقد أقام الكهنة له في «هليوبوليس» برجا ير صدون منه سير الشمس، وما حولها من بروج السماء وكواكبها، ومعرفة بداية بشائر الفيضان من كل عام.

تبعا لذلك، توصلوا من طلعة النجم المعروف باسم «الشعري اليمانية» إلى بشائر الفيضان، وعلى ضوئه بدؤوا يقسـمون العام فصـولا ثلاثة: أولها فصـل الفيضـان، وثانيها فصـل الزرع والإنبات، وثالثها فصـل الحصاد، فكان الإسكيمو يعدون خمسة فصول في السنة، وقبائل النوير في جنوب الصحراء الإفريقية يقسمون السنة إلى فصلين: فصل المطر وفصل الجفاف، أما المصريون فقد خدمتهم التقاويم في أغراض عملية:

«كما هو الحال في الزراعة وهى تزامن أيضـا الطقوس الدينية التي تعد هى نفسـها مرآة لتعاقب دورات النظام الكوني، وكذلك أفادت التقاويم أغراضـا تتعلق بالسـحر والتنجيم، إذ اعتقد الناس، وبخاصـة عندما ألّهوا الأجرام السماوية، إن هذه الأجرام لها سلطانها في فترات معينة على الشؤون الأرضية»[٢٠] .

---

(١٨)مجدي وهبه: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص ٣٢٩ مكتبة لبنان- بيروت ١٩٧٩م.

(١٩)راجع المبرد: الكامل٢/ ٥٤٨ تحقيق زكي مبارك، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٦م.

(٢٠)روى بورتر وآخرون، سلسلة المعرفة، الكويت ١٩٩٢ ص ١٣، بتصرف.

لم يقتصـــر دور النيل على لعب دور التنمية الاجتماعية، بل مضـــى في تدفق كرافد ثقافي وشـــريان حيوي للمواصلات وتوثيق العرا بين مختلف الأجناس.

وهو على هذه الأرض جدّ مختلف تماما عن بقية أنهار العالم، لا ســـيما في الشـــرق الأدنى، فعلى دجلة والفرات قامت حضارات ودويلات كثيرة، أما مصر فقد امتازت حياتها وحضارتها بالوحدة والتكامل.

ومن مآثر النيل وفضائله، أنه أشبع المواطنين من أثداء الطهارة واجتناب الانغماس في الخطيئة، وما قصة «حور محب» إلا واحدة من مئات الأعمال التي ضـــحى أبطالها بحياتهم المســـتقرة حفاظا على الفضـــيلة والطهارة ولعلها في بعض تفاصيلها تقترب من قصة سيدنا يوسف مع امرأة العزيز.

ا ضطر «حور محب» لمغادرة مـصر هربا من غواية زوجة أخيه، حتى ا ستقر به المقام بين قبائل «الرينتيو» في صحراء مصر الغربية.

في منفاه الاختياري، تمنى ألا يموت في بلد غير مـصر، ولا يغسل جسده بغير مياه النيل، ولا يلتف جسده كفن من غير نسيجها، وقد آمن –كواحد من المـصريين– لكي يكون كفنه من لباس أهل الجنة، فإن الروح لا تستريح إلا إذا كان نسيجها من الكتان الذي ينبت في أرض مصر.

هنا تبرز أبعاد الـ شخـ صية المـ صرية وأثر النيل في تنقية روحها، وله في أفراحهم وأتراحهم بـ صمة مدموغة بأنفاســـه، وقد قيل في الأعراس قصـــص كثيرة، منذ بداية رحلته من الجنوب إلى الشـــمال، حيث أرهص فجر الحضارة المصرية بالبزوغ، عبر صراع قاس مع الطبيعة خلفت وراءه مناقع وأخوار، وجداول تتشعب ما بين السلسلة والشلالات، حتى اتسعت الصحراء لصدره، وأقبلت على العمران.

وتيمنا ببركته، أخذ الفلاحون من عطاياه، وراحوا –كتقليد سنوي– يزينون أبواب بيوتهم بحزم صغيرة من سنابل القمح لعل الحصاد القادم يأتي بالوفرة والسخاء.

لقد ألفوا في احترام وإكبار انعكاس الشمس على صفحة النيل، إذ حينما تشرق عليه، تكون ضفافه ترفل في ثياب من الاخـضرار، وإذا ما دنى الأ صيل تكون ألوان الـ صخور قد ذابت من مزيج الألوان، وإذا بالنيل كأنه يدور في كأس خمرية، يحفها حببُ الموج في حنو، كأنه الربت والهدهدة على صدر الحياة.

ولفرط حب المصريين للنيل، وضعوه على مقعد التقديس فصار إلها، وصار «حابي» بمعنى الفيض، وهو «حابي الأعظم» إن فاض فيضه، و«حابي الأصغر» إن غاض ماؤه، ثم هو «حابي أبو الأرباب»، ويسمونه في بعض الأقاليم المصرية: «يارو» بمعنى «البحر الأعظم» فهو البحر وغيره ضَحْضَاح، هزيل، لا يقاس به أي شئ في الوجود.

أليس هو الذي خلق الأرض بما عليها للمصريين وأخصبها؟.. فهى أرض السوداء، وما عداها من أرض الدنيا فحمراء، جرداء، لا تعرف الخصب إلا على ماء المطر.

ولأجل الحفاظ عليه من ملوثات الأشرار وأعمالهم الدنيئة، يشاع من بين قصص الرواة قصة الكبش الذي جاء مع النيل من قلب إفريقيا فاتخذه المصريون حارسا على منابعه عند أسوان.

ونستبين من هذه القصة أن الصلة التي بين مصر وشعوب القارة الإفريقية لم تكن صلة عضوية فحسب، ولكنها ضاربة في أعماق الإيمان والتجذر.

ومن الملاحظات الجديرة بالإشارة إليها، أن من تناولوا قضايا النيل المتصلة بدول المنبع، اكتشفوا أن المشاكل التي تصادف الدول صاحبة الشأن، أنه لا يوجد حل لها إلا باستيعاب دروس الجغرافيا، على اعتبار أنها (علم تكاملي لكونها الجسر الواصل بين العلوم والطبيعة والإنسانية)

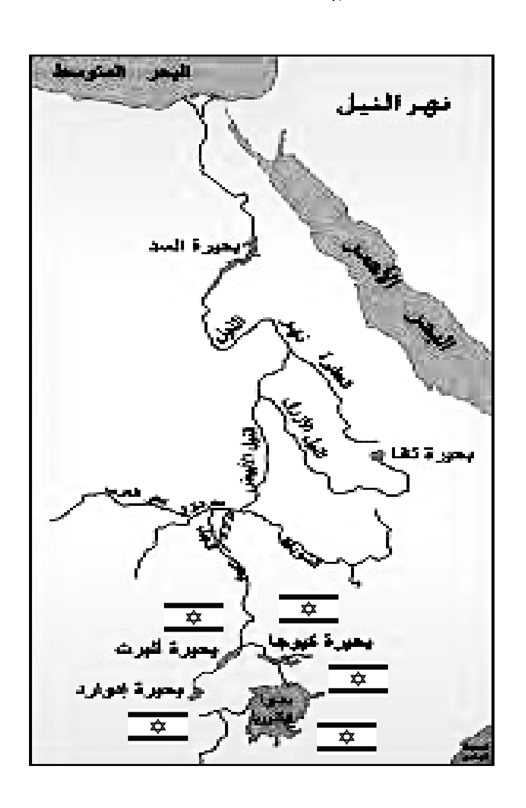
«وحتى وإن بدت على السطح علما موسوعيا فإنها في الجوهر علم ملحميّ على موسوعيته، علم العَالم لا علم العلوم، وبهذا فهي ليست مجرد علم شموليٌّ معقد «ناقل» دون إضافة، ولكنها في جوهرها الفلسفيّ علم بسيط أساسا، إنها علم «الفطرة» والتي تعني أساسا فكرة الإقليم، فالأرض مختلفة بطبيعتها، وسطحها ليس أملسا ككرة «البلياردو» ولكنه أشبه بقطعة «الموزاييك».. وفي الأرض قطع متجاورات.. صدق الله العظيم[٢١]»

وعلى قدر ما يظل تشبث المصري بأرضه، تشبث الروح بالجسد فإنه يظل نافيا تآكله الذاتي، وبالسؤال الذي يقرع أبواب المستحيل، لعله بالشروط النموذجية للتطور الجدلي والحضاري، تبقى شخصيته قرينة زمن متوتر، متحول في حياة قد تمضي في أحقاب لا نظير لها، كأنها انقلاب كوني، أو انكسار للجدل الهابط

الذي ساد لفترات، ثم تحمل رياح العواصف الفكرية والدينية روحا جديدة، يتغير معهما، وبهما اتجاه التاريخ

(٢١)جمال حمدان: شخصية مصر،. دراسة في عبقرية المكان، ص١٤.

الفصل السادس أطماع إسرائيل
في مياه النيل



حين نتحدث عن مشاكل مصر مع المياه، فلابد أن نعيد النظر، لترشيد ما تستهلكه الحيوانات في دول المنبع، وما يهدر في المستنقعات والمحيطات إذ من غير المعقول أن تستهلك الحيوانات من المياه أكثر من ١٥٠ مليار متر مكعب سنويا، بزيادة تزيد على الحصة المقدرة لمصر بنسبة تبلغ حوالي ثلاث مرات.

إن الحديث عن المياه سيظل مستر سلا بلا تراخ فيه طالما كان الأمن القومي المصري تتهدده الأخطار، والتلويح بحبس المياه وراء السدود التي أقيمت في إثيوبيا بخبرة صينية ودعم أمريكي صهيوني.

وثبت أن الحيوانات ليست وحدها التي يتبدد الماء في محيطها، بل إن المليارات من المياه تتسرب إلى البحر، دون أن تستفيد دول الحوض منها.

وعندما نعود إلى مراجعة اتفاقيات المياه وبروتوكول روما ١٨٩١، نرى أن الحكومة الإيطالية تلتزم بعدم إنشاء منشآت هندسية على نهر عطبرة حتى لا تتأثر كمية مياه النهر التي تصل إلى السودان ومصر.

ويقرر البروتوكول ضرورة التشاور بين الدولتين (بريطانيا: المحتلة لمصر والسودان) و(إيطاليا: الممثلة لأثيوبيا) قبل القيام بمشروعات استغلال النهر.

وبعد خرق هذه الاتفاقيات من قِبل إثيوبيا بات المصريون يخافون أن ينقسم حوض النيل بين دول الشمال العربي مصر والسودان، وما بين دول الجنوب الإفريقي حيث النيل ومنابعه، وهناك تقع دولة جنوب السودان التي دعمت علاقتها مع إسرائيل، وهى تجاهر بالقول: إن كل أرض وطأتها قدم صهيون فإنها تصبح جزءا من أملاكه، وإن لهم فيها حقوق:

«ومنذ بداية التسعينات أ صبح الأمن المائي هاجس المنطقة الجديد على مستوى الحكومات والشعوب على السواء، إذ يشعر الجميع أن هناك أخطارا تهدد وصول مياه ثلاثة أنهار حيوية، ولا غنى عنها، وهى: النيل، والفرات، والأردن، و تأتي هذه الأخطار من أقطار غير عربية تشكل دول المنبع عموما، وهى المعروفة بالضلع الثالث في الصراع العربي الإسرائيلي»[٢٢].

و بالنظر إلى واقع مصر الديموغرافي منذ أن احتلتها بريطانيا عام ١٨٨٢، نرى أن عدد السكان قد بلغ٠٠٠, ٢٠٠, ٧نسمة تقريبا، وبلغ عام ١٩١٤ (٠٠٠, ٦, ١٢) ومع الزيادة السكانية، لم يحدث بين

(٢٢)د. حسن بكر (حروب المياه في الشرق الأوسط الجديد) ميريت للنشر والمعلومات، القاهر،١٩٩٩.

سنوات ١٨٨٢ حتى ثورة ١٩١٩ أي نمو اقتصادي يوازي الزيادة السكانية، وأن مشروعات الري التي تمت بين ١٨٨٢/ ١٩١٤ لم تزد الرقعة الزراعية إلا بمساحة٦,٠٠٠ فدان.

غير أننا لا نغفل الجهود التي بذلتها الحكومة المصرية في أربعينات القرن الماضي، فقد سعت بجدية إلى توسيع الرقعة الزراعية من أجل زيادة المحاصيل فشكلت لجنة من كبار مهندسي الري بوزارة الزراعة عام ١٩٤٧، وقد انصبت جهودها في وضع المشروعات الخاصة بضبط مياه النهر تحقيقا للمصلحة العامة، وأقرها مجلس الوزراء المصري في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٩، واهتمت في برنامجها بخطط تخزين المياه على المدى البعيد في البحيرات الاستوائية، وفي بحيرة تانا بإثيوبيا.

هنا تجدر الإشارة إلى اتفاقية أديس أبابا عام ١٩٠٢ بين بريطانيا المحتلة لكل من مصر والسودان، وبين إمبراطور الحبشة، وقد نصت في مادتها الثالثة على تعهد إمبراطور الحبشة بألا يصدر تعليماته أو يسمح بإصدارها فيما يتعلق بعمل أي شيء في النيل الأزرق أو بحيرة تانا أو نهر السوباط يمكن أن يؤدي إلى اعتراض سريان المياه إلى النيل.

ثم وقعت فرنسا وبريطانيا وإيطاليا على اتفاقية لندن في ديسمبر ١٩٠٦ وتضمن التأكيد على عدم خفض نسبة المياه الواردة لمصر من هضبة الحبشة.

وفي عام ١٩٢٤ أبرمت مصر اتفاقية مع بريطانيا (باعتبارها ممثلة السودان وباقي دول مجرى نهر النيل التي كانت تقع تحت التاج البريطاني وهى: أوغندا.. كينيا.. تنجانيقا) وتنص هذه الاتفاقية على ألا تقام على النهر وروافده ومنابعه أية منشآت أو أعمال من شانها أن تعوق تدفق النيل في السودان حتى لا يؤثر على حق مصر المكتسب من مياه النيل.

وليس أمام الجميع، قبل أن يبحثوا عن مستحقاتهم من المياه أن يتبنوا خارطة تلزم دول الحوض بإيجاد آلية تجعل من مبدأ التعاون، قوة تدشن نمط التفاعلات الإيجابية بين دول حوض النيل، وإذا لم يكن ذلك بمستطاع أحد الآن، فعلى الجميع أن يهتموا بإحياء التجمعات القائمة، خاصة وأن اليهود تسربوا إلى دول القارة من ثغرة أطلقوا عليها: باب المنفعة العامة، ودعما «للكل» الذي صاروا «قطعة» منه، فإنهم يتقدمون على طريق التحولات في القارة الإفريقية، بما لديهم من تقنية حديثة، وأموال لا تعد ولا تحصى.. بيد أن ما

يعوزهم لتحقيق الأحلام، أن يتجرد الآخرون من النوازع والمشـاعر المعيقة، وإذا أعملوا العقل –معا– فسيدركون أن مشروعاتهم لن تنتقص من حصة المياه المقررة لكل دولة من دول الحوض، بل قد تزيد.

ثغرة التدخل الصـهيوني، أوسـعت الباب أمام تدفق خبراء الزراعة على دول أعالي النيل.. رجال أعمال.. مستثمرون.. مستشارون عسكريون، كل في مجاله، يرصع حلقات الحوار، بما يخدم أهداف الصهيونية، قبل أي شيء آخر.

عادة.. يتمخض الحوار عن تسـويغ أحقيتهم في المشـاركة والخروج بصـيغة تنص على أن لهم حصـة من المياه، خاصـة وأن معظم دول حوض النيل، لا تعتمد في حياتها على اسـتخدام مياه النيل في الزراعة، ويعتمد بعضـها الآخر على الزراعة «المطيرة» لري الأراضـي، حيث تنبت المراعي الطبيعية كغذاء للحيوانات، ومن المعروف أن ثلثيها موجود في إفريقيا، وهناك دول مثل السودان لا تستفيد من حصة المياه المقررة لها بنسبة قد تقل عن ٨٠٪ من مقدارها.

لذلك، ترى نخبة من الخبراء أنه لا توجد أزمة في المياه، وإنما تتفاقم المشـاكل من سـوء التوزيع، فالمياه موجودة بوفرة وبكميات كبيرة، كما يمكن لبعض دول المنبع أن تستخدم المياه الجوفية في الحوض في الري التكميلي، وإن مصـر لقادرة –إذا شـاءت– أن تسـتخدم الأسـلوب العلمي في معالجة مياه الصـرف الصـحي وإعادة ا ستغلالها في الزراعة، وفي المنشآت العامة، وكذلك إعادة ا ستخدام مياه الصرف الزراعي الذي يبلغ ٦ مليارات متر مكعب، ومن الممكن أن تكون المياه الجوفية بديلا منا سبا، خا صة في ضوء وجود درا سات تفيد أن هناك نهرا من المياه تحت الـ صحراء الغربية مـ شترك بين مـ صر وليبيا، وتـ شاد والـ سودان، ويعتبر هذا المخزون الضـخم، ثروة تدخرها الطبيعة لمصـر، في انتظار جهود شـباب مصـر المخلصـين، حتى يتحقق الاضـطراد في معدلات النمو، بما يكفل لأمتنا الصـعود إلى مصـاف الدول المتقدمة، وهى تسـتعيد دورها الريادي.. العربي.. الإفريقي.. الإسلامي.

يمكن من هذه الطاقة المختزنة معالجة جانب من مشاكلنا مع المياه، خاصة بعدما تجاوزت دول الحوض الحدود بخرق الاتفاقيات، وفرض واقع جديد يؤثر سـلبا على مصـالح مصـر المائية، بدعم وضـغوط أمريكية/ إسرائيلية ولا تزال مستمرة –حتى بعد سقوط حكم مبارك– لتركيع مصر، وإجبارها على الاستمرار

في تنمية مشروع ترعة السلام عبر سيناء حتى صحراء النقب، خدمة لإسرائيل، ودعما لأمنها المائي والغذائي.

على الرغم من الحاصل على أرض الواقع، إلا أنه لا تزال ثمة فرصة أمام شباب ثورة ٢٥ يناير لمعالجة الأخطاء الفادحة التي ارتكبها سدنة النظام السابق في حق الشعب المصري، والأمل معقود على أياديهم في تحقيق القرار السيادي، ومعالجة نقاط الخلاف مع دول الحوض.

ولكي تأمن مصر عوادي الزمن، وتتقي شرور التهديدات الخارجية، فلا بد من حشد الجهود لدعم تلك البوابتين الأمنيتين: بوابة فلسطين عبر سيناء، التي من خلالها تم تنفيذ الاعتداء الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، وعلى نفس الدرب انقضت علينا خفافيش الحملات الصليبية، وجيوش المغول.

الجهة الثانية كمصدر للأخطار هى: البوابة الإفريقية التي غفلت حكومات مبارك عن وضع مصر عليها في امتدادها على شريط مائي يضم دول الحوض، وهى جميعها داخلة في أعماق الأمن القومي المصري.

ما يريده الشعب المصري أن تعود مصر إلى لعب دورها الريادي في إفريقيا، مثلما كانت تقود قافلة النضال والتحرر في الحقبة الناصرية، ثم بعد ذلك كانت الدولة المصرية تهتم بتفعيل الاتفاقيات المبرمة بشأن التبادل التجاري (١٩٧٦) والملاحة البحرية (١٩٧٧) وتوسيع الاتفاق الجمركي (١٩٧٨).

لم تتقاعس مصر عن لعب دورها الإيجابي إلا في الحقبة الديكتاتورية لحسني مبارك، حيث ظلت حكوماته التي تولت أمر البلاد لأكثر من ثلاثين عاما، موزعة بين الأتوقراطية (حكم الفرد) المدعوم بحشد جماهيري مزيف الإرادة، ثم يتشكل من هذا الزيف ما يسمى بالأغلبية ذات الإسهامات البالغة في صناعة «ديكتاتورها» وبين نوازع الهيمنة الثيوقراطية المستمدة من الأعلى قوتها لحساب الديكتاتور، فيتبادل الأتوقراطي المنافع، والمصالح المتبادلة مع الثيوقراطي على حساب المصالح العامة.

ويحسب أن لمصر في سابق عهد حسني مبارك، أنها كانت دعت دول وحكومات القارة السوداء إلى عقد المؤتمر الاستثنائي الثامن في لاجوس:

«وتبنى المؤتمر خطة عمل عرفت باسـم «خطة لاجوس» لدفع التنظيمات الإقليمية إلى اتجاه التوحيد في سبيل إنشاء جماعة اقتصادية إفريقية»[٢٣] .

من أهم التو صيات التي أقرها المجتمعون في لاجوس: تكوين لجان مياه قومية.. تكوين مؤ سـ سات على مسـتويات إقليمية للموارد المائية مثل أحواض الأنهار والبحيرات للاسـتفادة من المياه، ومن خبرة مصـر في بناء السدود والزراعة وتوليد الكهرباء عن طريق شبكة موحدة، ترتبط مصالح دول الحوض بها.

غير أن تردي الأوضاع الاقتصادية والسياسية في مصر منذ ما بعد ثمانينيات القرن الماضي، حيث وضعت مـ ستقبلها بين أيدي حفنة غير أمينة من المـ ستثمرين.. أجانب.. عرب.. مـ صريون ومن و ضعت في خدمتهم حوالي ١٢٥ قانونا انفتاحيا، تؤمن رؤوس أموالهم، دون النظر في أهمية مشـروعاتهم التي لا تعود بخير على شعب مصر.

وحينما تناقلت وكالات الأنباء العالمية أخبار إثيوبيا عن إنشـاء سـدود تحبس المياه عن مصـر، تناولت حكومة مبارك الأمر بروح اللامبالاة والاسـتهانة، وبعد يومين من انتشـار أخبار حبس المياه على ألسـنة الجماهير، توهمت أنها تعالج الأوضاع، بلغة تتسم بالحكمة، وبأسلوب يراعي مصلحة مصر ومستقبلها.

في خيلاء من يبيعون ما لا يملكون لمن لا يستحق، كان رأس الدولة المصرية، يرسل «للآخر» لامتصاص غضب الشعب، ومن خلال التصريحات الإعلامية، كلمات مبطنة، فيها من الزجر والوعيد، مع عدم التخلي عن لكنة: «نحن» المنبعجة« بالنظر «للآخر» من علٍ، حتى تضعه في شكل قزمي لا يليق إلا بأمثاله.. ذلك لأن «نحن» أصحاب الحضارة، ونحن الذين كنا.. والذين...إلخ.

ومع مزاعم المشاعر الزائفة والتيه الأجوف، يتمخض السلوك الشائه، حيث يودي بمصلحة الأمة، تحت سياط حكم الفرد النرجسي، في استعماله لفظة حضارة، وانتسابنا إليها، وهى أصلا نابعة من:

- ❖ مشاعر التفوق (وأحيانا التدني) نحو شعب يُعتقد أنه مختلف جدا.
- ❖ التوهم بأن ذلك الشعب قد يتطاول على أسياده إذا أُرخي له اللجام.
- ❖ صـعوبة التفاهم مع هذا الشـعب لعدم التبصـر بأن عليه حقوقا يجب أن يؤديها لمن يسـتعملون لغة «نحن».

---

(٢٣)د. سـيد محمد موسـى حمد (مصـر ودول حوض النيل) سـلسـلة العلوم الاجتماعية، مكتبة الأسـرة، الهيئة المصـرية العامة للكتاب٢٠١٠ ص٤١.

❖ افتقاد لغة الحوار البناء بين شعوب شاء الله أن تعيش على ضفاف المياه المتدفقة إلى مصر.

حين بدأ الآخر يعيد النظر في أوضاعه الاقتصادية، وفي كمية حصة المياه التي تستحقها دولته، لم يجد أمامه من شيء يعود على بلاده بالمنفعة، سوى الأخذ بمشروعات بناء السدود، وقد أشرنا إليها سلفا، فما كان من مصر إلا أن أبدت الطعن في هذا السلوك، معتمدة في ذلك على الاتفاقيات المبرمة بين مختلف الأطراف، وما تضمنته من نصوص تحفظ لها حقوقها، وكانت مطمئنة بالاستناد على هذه الاتفاقيات التاريخية إلى أنها توصد الباب في وجه كل من تهجس نفسه بتخفيض حصتها من المياه.

حاولوا تنشيط الذهنية التاريخية، دون أن يكونوا قد تفهموا ضرورة سريانها بنوعين متكاملين من النشاط البحثي:

«أولهما تحليل المادة التاريخية، أي التقاطها من مصادرها ومظان وجودها وتحقيقها، وثانيهما تركيب هذه المادة التاريخية في سياق بنائي واحد والمادة التاريخية من حيث هذه أحداث ووقائع تخضع لدى الباحث، أو المفروض أن تخضع، لمنهج موضوعي صارم في التحقيق والثبوت، لينكشف منها الثابت على وجه اليقين أو الظن الراجح»[٢٤].

لكن في مشاكل المياه، وما يمكن أن تشعله من حروب بين الدول، أصبح الثابت بالاتفاق، (والثابت على وجه اليقين)، يعصف بهما معيار المستجدات، وإنه ليس بنصوص الاتفاقيات -وحدها- يقبض البعض على مصلحتهم، إذ أنها لا تدعم من وجهة نظر الآخر، سوى نظرة المؤرخ إلى كم من الوثائق، تشيد ببديهته وبراعته في استخدام أدواته في الاتفاقيات التاريخية.

بينما كان هناك من يشيرون إلى أهمية العدول عنها -لا بقصد إلغائها- وإنما لإضافة إطار سوسيولوجي يتسع لآفاق تعي الأخذ بأهمية التطور الجدلي والاقتصادي، وهو ما يصب في اتجاه مصلحة مصر، ومثلما الحال بالنسبة لمجموعة دول حوض النيل.

(٢٤)طارق البشري: الحركة السياسية في مصر ١٩٤٥-١٩٥٣، دار الشروق بالقاهرة، الطبعة الثانية،١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م ص٧، المقدمة.

وتبعا لمفاهيم قوانين الجدل والديالكتيك، رأت إثيوبيا أنها تحرز تقدما على ضوء الاتفاقية الإطارية لدول الحوض فرفضتها مصر والسودان، لأن فيها قصور –بحسب رأي خبير سويسري وبريطاني في مشاكل المياه– فتم إعداد مبادرة مصــرية حول البنود الخلافية فقوبلت بالرفض من قبل دول حوض النيل في اجتماع دول الحوض بالإسكندرية في يوليو٢٠٠٩.

وفي محاولة لمعالجة حالة التفكك وتضــارب المصــالح بين دول الحوض، جاءت المبادرة المصــرية في صيغة اتفاقية أبرمتها مصر مع حكومة السودان عام ١٩٥٩، متحررة من أسر المصالح الذاتية، وكتعبير عن الاتفاق المرجو في إطار التعاون الفني وفي إطار توســيع النطاق الإفريقي، ليحتوي الآمال المرتقبة من وراء إنشاء اللجنة الفنية المشتركة المصرية السودانية، وبدأ عقد اجتماعاتها منذ أكتوبر ١٩٦١ مع ممثلي تنزانيا.. أوغندا.. كينيا.

اهتمت مصر والسودان، بالعمل من خلال تلك اللجنة باجتذاب دول حوض أعالي النيل من أجل تعديل اتفاقية ١٩٢٩ التي كانت تمت في شكل خطابات متبادلة بين مصر وبريطانيا بصفتها كانت الممثلة الر سمية للسودان، وباقي دول مجرى النيل الواقعة تحت الامتياز البريطاني، وهى: أوغندا.. كينيا.. تنجانيقيا، فجاءت ١٩٥٩ بمفاهيم جديدة ذات صــلة وثيقة بالتطور، وكانت أكثر تقدما من الطابع الحمائي الذي تبنته اتفاقية ١٩٢٩:

«وبهذا أمكن لكل من مصر والسودان احتواء التفكيك الذي ظهر في الستينات في حوض النيل لعدم تبلور الاســتقلال والتذرع بادعاءات الســيادة المطلقة، وفتح مشــروع اللجنة الفنية لحوض النيل الباب لإعادة التفاوض حول اتفاقية ١٩٠٢،١٩٢٩ في ضوء التطور الوظيفي الذي أنشأته اتفاقية ١٩٥٩، وفي ضوء معالجة فنية للمصلحة المشتركة بفتح الباب أمام نظام إقليمي على أساس وظيفي جديد »[٢٥] .

ذلك الشيء الجيد يحسب لجيل من الفنيين في الحقبة الناصرية، ولأجهزة وزارة الري، في جيل يختلف في أدائه المهني والمهاري مع مشــاكل الري والمياه، عن جيل الثمانيات، ليس لأنهم كانوا أقل كفاءة، بل لأنهم عملوا في أجهزة حكومية لم تكن لتهتم بمصالح الوطن وقضايا المواطنين.

---

(٢٥)د. سيد محمد موسى حمد (مصدر سابق) ص٣٧.

على سـبيل المثال لا الحصـر، قضـية السـدود الإثيوبية، عالجها المسـؤولون بأسـلوب يبتعد عن الفطنة والكياسة، ولكي يغطوا على فشلهم، أشاعوا بين جنبات الشارع المصري أنها أقيمت في سرية ودون الرجوع للاتفاق مع دول حوض النيل حتى أصبحت واقعا، حيا، ملموسا على الأرض.

وكأن «السرية» المزعومة هى طوق النجاة الذي يعلق عليه الفا شلون عدم اليقظة، وعدم النزاهة في تحمل مسؤولية الأمن المائي.

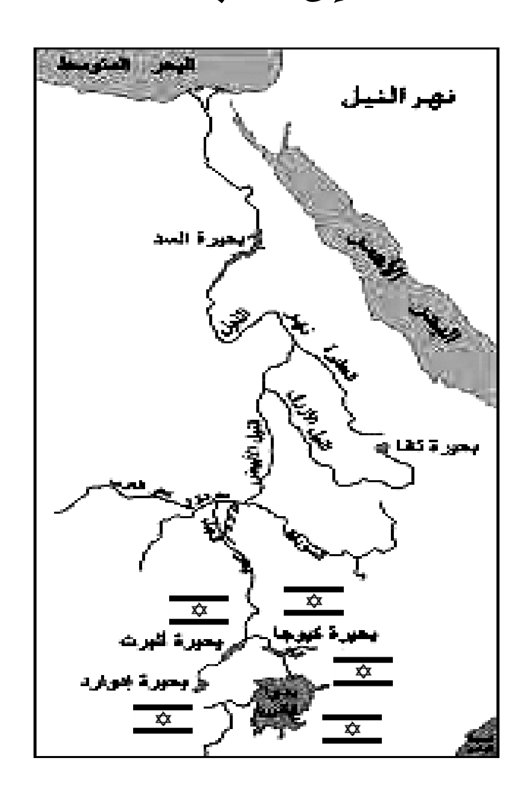
وحول الـ سدود المقامة في سرية، يـ شير الدكتور مارك جيولاند من جامعة ديوك الأمريكية في درا سة نـ شرها في نوفمبر ٢٠١٠ أن صافي القيمة الحاضرة للعائد الاقتصادي المقدر لأحد هذه السدود، وهو سد «منداياً» الذي تبلغ سـعته ٥٠مليار متر مكعب، وينتج ٢٠٠٠ ميجاوات من الكهرباء، وتصـديرها إلى دول الجوار، وسـوف تبلغ أرباح «سد النهضة» أضعاف هذا المبلغ، نظرا لأنه يفوق «سد منداياً» كثيرا.

ثم تم إعداد مبادرة رئاسـية بالتنسـيق مع السـودان لإنشـاء مفوضـية تدير مشـاريع حوض النيل، وتدبير الأموال والا ستثمارات لصالح هذه المشروعات، مع ا ستمرار التفاوض حول النقاط الخلافية، وتم رفضها من قبل رؤسـاء حوض النيل، واسـتمر الخلاف بين مصـر وإثيوبيا مدة طويلة بعد أن اعترضـت رسـميا على توزيع ٨٤ مليار متر مكعب بين الدولتين.

إن تـ ضارب المـ صالح كانت الـ سمة التي لا عقل لها، وقد طفت على سطح العلاقات المـ صرية الأثيوبية بشكل لا يخدم أحدا منهما.



الفصل السابع
لماذا اتجه البطرق
إلى الحبشة ؟



اتفقت بلدان حوض النيل على توزيع كميات المياه بينها مشتركة، وحددت حصة كل بلد منها، وتأسيسا على ذلك، قامت دول الحوض بوضع الدراسة المنظمة لهيدرولوجية النهر، وتم ذلك بالفعل على الأرض:

«في أعقاب اكتشاف منابع النيل وفتحها للزيارة والإقامة، مما أتاح إمكان تأسيس نقط لمراقبة النهر في جميع أجزائه، وفي معظم روافده، ثم تم إنشاء حوالي ٣٠٠ نقطة مراقبة في مصر والسودان، وأوغندا، يتم فيها رصد أحوال النهر كل يوم، وقد أنشئت معظم نقط المراقبة هذه في أوائل القرن العشرين، وأضيفت إليها بعض النقاط في منطقة النوبة في أعقاب بناء السد العالي بأسوان، وبكل نقطة مراقبة عمود مدرج من الرخام مثبت على جانب النهر، نقرأ عليه كل يوم مناسيب النهر وترسل هذه القراءات إلى الإدارات المركزية في الحكومات المعنية»[٢٦].

وأهم المصادر التي يتدفق منها النيل:

الهضبة الإثيوبية، وتتجمع مياهها من عدد من الأنهار، وهي:

أ- نهر السوباط: حيث يلتقي هذا النهر بالنيل الأبيض، قرب مدينة ملكال جنوب السودان، ويبلغ متوسط كمية المياه بالنهر السوباط نحو ١١ مليار متر مكعب.

ب- نهر عطبرة، ويلتقي هذا النهر بالنيل الرئيسي قرب الحدود المصرية السودانية، ويبلغ متوسط دخله المائي سنويا حوالي ١١,٥ مليار مكعب.

ج - النيل الأزرق ويلتقي هذا النهر بالنيل الأبيض عند مدينة الخرطوم، وحصيلته سنويا تقترب من ٤٨ مليار متر، ويستجمع مياهه من الأنهار التي تنبع من جبال الهضبة الاستوائية ومن بحيرة تانا.

الهضبة الاستوائية، ويبلغ المتوسط السنوي للمياه الواردة منها نحو ١٣ مليار متر، ويعد هذا المصدر من أكثر المصادر انتظاما في إمداد النيل على مدار العام.

(٢٦) د. سيد محمد موسى حمد: (مصر ودول حوض النيل) سلسلة العلوم الاجتماعية، مكتبة الأسرة٢٠١٠ الهيئة المصرية العامة للكتاب ص١٤٥.

حوض بحر الغزال: وينتشـر فيه عدد من الأنهار الصـغيرة التي تنبع من المناطق الاسـتوائية الجبلية بالسودان وإفريقيا الو سطى، وتبلغ كمية المياه – سنويا- لهذه الأنهار ١ , ١٥ مليار متر مكعب، ويُفقد الباقي في منطقة المستنقعات.

إذا أضـيف إلى ذلك الفقد ما يمكن أن ينجم عن غزو مفاجئ من الجفاف فلسـوف يُعصـف بحياة المصـريين، وبعيدا عن التشـاؤم، لدينا أمثلة لمآسٍ وقعت من هذا القبيل، إذ كانت أسـتراليا تعتبر من أكثر القارات جفافا، ومن الطبيعي أن يوجد في العالم مناطق غنية بالأمطار، ومناطق تتعرض للجفاف والقحط.

في ثلاثينات القرن الماضـي، تأثر الجنوب الغربي من الولا يات المتحدة لأطول فترة من الجفاف في تاريخه، مما اضطر المزارعون لهجر منازلهم.

وخلال ثمانينات القرن العشـرين، أصـاب الجفاف مناطقٍ في الأرجنتين، واسـتراليا، والبرازيل، وإثيوبيا، وباراجواى، وأرجواى، وكثيرًا من الأقطار الأخرى.

ومن المثير للنظر والتأمل أن الطبيعة حين تلهو بالمطر في سخاء على بعض المناطق فإنها تصوح بالأخضر واليابس في مناطق أخرى، فكان على الإنسـان أن يضـع الحلول المناسـبة لدرء شـرور الفيضـانات وشـرور الجفاف،

لقد مرت بمصر سنوات كان فيضان النيل فيها دون المتوسط، واستمر على ذلك عدة سنوات متتابعة.

ونستبين من كتاب «جنيرس» أن سنين الرخاء السبع ابتدأت في سنة ١٧١٥ ق.م، ثم تلتها السبع الشداد (أنظر: سـورة يوسـف)، وحصـل القحط في عهد داود عليه السـلام سـنة ١٠٢١ ق.م، وكان قحطا أثره لا يحتمل.

ولما أنعم الله على مصـر بالإسـلام، عرف الخليفة عمر بن الخطاب ما يلقي أهلها من الغلاء جراء توقف النيل، ولفرط خوف الناس من عدم حصولهم على الطعام، ظهر الاحتكار للسلع الغذائية، وارتفعت الأسعار فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يسأل عن شرح الحال.

أجاب عمرو: إني وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربع عشرة ذراعا، والحد الذي يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ست عشر ذراعا والنهايتين المخوفتين في الزيادة والنقصان، وثماني عشر ذراعا في الزيادة.

استشار عمر بن الخطاب على بن علي أبي طالب في ذلك فأمره أن يكتب إليه بأن يبني مقيا سا، وأن يفض ذراعين على اثنتى عشرة ذراعا، وأن يقر ما بعدها على الأصل، وأن ينقص من ذراع بعد الست عشرة ذراعا إصبعين، ففعل ذلك، وبناه في حلوان، فاجتمع له ما أراد من حال الإرجاف وزوال ما منه كان يخاف.

وفي مدارات القحط والجفاف، حل بمصر سنة ٤٥١هـــ غلاء عظيم، استمر لمدة سبع سنين، فبلغ ثمن إردب القمح الواحد مائة دينار وقد لا يوجد أصـــلا، فأكل الناس الميتة والجيفة والقطط والكلاب، وأكل الناس بعضهم بعضا وتزامن هذا الغلاء مع فناء ثلثي أهل مصر.

وحينما اجتمع المسؤولون لمعالجة أسباب هذا البلاء والجفاف الذي حل بمصر:

«كان قد أشيع أن الحبشة سدت مجرى النيل فتوجه البطرق بأمر الخليفة المستنصر بالله إلى الحبشة، وطلب منهم إطلاق النيل فأطلقوه، وفعل ذلك أيضا ابن وصيف شاه، وكانت القاعدة (القاعة) ثلاث أزرع وإحدى عشرة إصبعا، وانتهت الزيادة إلى اثنتي عشرة ذراعا، واهبط وشرقت البلاد وقع الغلاء العظيم..» [٢٧].

إن الجفاف الذي يدهم الحياة المصرية بين وقت وآخر، يكون في بعض الأوقات أحد مظاهر تغير مناخي كوني، وتغير مناخي إقليمي، وعندما توقف النيل عن الزيادة في أوائل أبيب عام ٨٦٦هـــــ، استمر متوقفا ١٤ يوما، واغبر لونه وطعمه، وصار أخضر حتى عاف الناس شربه، وقلق الناس وارتفع السعر وعز وجود الخبز في الأسواق:

«واســـتمر النيل في التوقف وكثر القال والقيل بين الناس، وزعموا أن النيل لم يطلع تلك الســـنة، وهمّ (الظاهر خشقدم) بهدم المقياس حتى لا يعلم الناس الزيادة من النقصان، فأشار الشيخ (أمين الأقصراني) على السلطان بالتثبيت في ذلك، ثم أن السلطان رسم لقضائه القضاة ومشايخ العلم بأن يتوجهوا إلى المقياس

---

(٢٧)أمين سامي باشا (تقويم النيل) المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣٤هـ، ١٩١٦م.

ويقيموا به أياما وهم يدعون الله تعالى بالزيادة، ثم بعد مضـــي ١٤ يوما زاد إصــبعين، فطلع ابن أبي الرداد وبـشر الـسلطان بزيادة الإ صبعين، فألبـسه سراري صوف بـسنجاب وا ستمرت الزيادة متتابعة حتى أواخر مسرى.

ووافق على ذلك ابن أياس، وقال : إنه ثبت ثباتا عظيما إلى أواخر توت.

وجاء في النجوم الزاهرة أن النيل ثبت إلى أواخر توت على نحو ١٨ ذراعا»[٢٨].

وتعود المآسي إلى دفع عجلتها مع مواسم القحط والجفاف، فعقب أن يتقلص النيل يسود المجتمع حالة من الذعر والبلبة، حيث تنخفض الموارد والمحاصـيل الزراعية، وتظهر لغة الاحتكار كتعبير لا إنســاني بغيض، شاع عام ١٢٠٦هــ في شهر المحرم حين هبط النيل ونزل مرة واحدة، و شرقت الأراضي، فلم يرو منها إلا القليل، وضــج الناس بالشـكوى، ورفعوا الشـكايات إلى الحكام، فصــار الأغا يركب إلى الســاحل ويضرب المتسببين في الغلاء، ثم صار إبراهيم بك يركب إلى بولاق ويقف بالساحل و سعر الغلة (٤) ريال للإردب، ومنعهم من الز يادة، فلم ينجح، و كذ لك «مراد بك» قرر الركوب والتخريج على عدم الز يادة، فيظهرون الامتثال و قت مرورهم، فإذا التفتوا عنهم باعوا بمرادهم، وذلك مع كثرة ورود الغلال و غالبها للأمراء وينقلونها إلى المخازن والبيوت.

والثابت أن مشاكل المجتمع المصري مع ندرة المياه، وتدخل الحبشة في حبس المياه، وهو ما أشرنا إليه سلفا، ناهيك عن ما يتمخض عن هذا من مشاعر الفزع والهلع، فإن الأمر برمته يُقعد مصر عن لعب دورها – بموقعها الجغرافي- التاريخي في صنع الحضارة.

من ثم كان الاهتمام بوضــع الدراســات حول المصــادر المائية من أجل التعاون الإقليمي بمعرفة المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة منذ عام ١٩٥١:

«فقد شــهد عقد الثمانيات العديد من المؤتمرات والندوات الفنية حول تنظيم أحواض الأنهار في إفريقيا ومن أهم هذه الندوات:

(٢٨)أحمد سامي باشا (مصدر سابق).

ندوة التحديات التي تواجه الهيدرولوجيا الإفريقية وموارد المياه والتي نظمت في هراري يوليو ١٩٨٤.

ندوة حوض النيل التي عقدت في بانجوك يناير ١٩٨٦ بتنظيم من الأمم المتحدة لتبادل الخبرات التنظيمية فيما يتعلق بالتعاون الإقليمي بين الدول الحوضية في العالم الثالث»(٢٩).

ويتبين من القياسات التي تم أخذها بالطبيعة أن مجرى النيل يحتوي على العديد من الجزر، تقع أكبرها قبلي موقع المحطة وتسمى جزيرة الكريمات، حيث يبلغ طولها ٤٣٠٠ متر وعرضها ٨٠٠متر، وتقسم نهر النيل إلى فرعين الغربي منها يبلغ متوسط عرضه ٣٥٠ مترا، ويمر به حوالي ٣٠٪ من التصرف الكلي خلال فترة إجراء المسح الهيدروجرافي وذلك لوجود جزيرة عند مدخل هذا الفرع من الناحية القبلية:

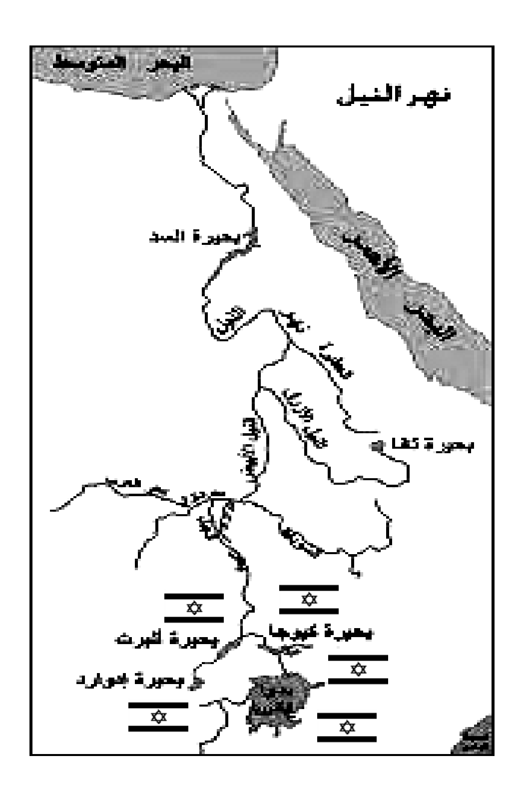
«وتقع بحري جزيرة الكريمات بحوالي ٥٠٠ متر جزيرة أخرى تقسم مجرى النيل أمام موقع محطة الكهرباء إلى فرعين: الفرع الشرقي –والذي يقع عليه مجرى مأخذ مياه التبريد الخاصة بمحطة الكهرباء– يبلغ عرضه المتوسط ٢٥٠ مترا، ويمر به حوالي ٣٦٪ من التصرف، بينما الفرع الغربي حيث يمر المجرى الخاص بالنيل- يبلغ العرض المتوسط للمجرى ٤٥٠ مترا، ويمر به ٦٤٪ من التصرف المار بالنيل، ويبلغ العرض المتوسط للنيل بحري موقع المحطة حوالي ٧٠٠ متر، وتوجد به ٤ جزر»(٣٠).

---

(٢٩)د. سيد محمد موسى حمد (مصدر سابق) ص٩٢.

(٣٠)وزارة الأشغال العامة والموارد المائية (المركز القومي لبحوث المياه) مجموعة من الدراسات، ١٩٩٥م.

الفصل الثامن
حكومات تكميم الأفواه



بغض النظر عن المكاسب المادية التي ستتدفق على الخزينة الإثيوبية، فإن شراً مستطيراً بات يهدد أمن مصر المائي والقومي، ويضع مستقبلها نهبا لعواصف الصراع، وعدم الاستقرار في منطقة القرن الأفريقي.

خلال احتدام الجدل الشعبي المصري حول مياه النيل، كان لا يوجد بيت في مدن مصر وقراها، إلا وقد استغرقه حديث مشاكل المياه.

بين كانت حكومات مبارك المتعاقبة، تركت الحبل على الغارب فانقطع عنها نبض الشارع المصري، لدرجة أنه عندما دعى ممثل مصر لحضور جلسات المنتدى الوطني الإفريقي برئاسة د. عماد الدين عدلي، لمناقشة الاتفاقية الإطارية لحوض النيل «المختلف عليها بين دول الحوض» فوجئ الحضور بالمهندس ممثل وزارة الري وهو يشترط بألا يسأل أحد منهم –سواء كان عضوا في المنتدى أو الصحافيين– أي سؤال عن الاتفاقية، وما آلت إليه الجهود المصرية بشأنها.

بهذا المعيار، كانت أجهزة مبارك تعالج ما يمس أمن مصر المائي ومستقبلها.. فكيف تكمم الأفواه ولا يسمح لأحد بطرح الأسئلة؟!

والشاهد، أن من يتابع طرح مسألة السدود الإثيوبية على مستوى الإعلام المصري، سيصدم بلغة جوفاء متعجرفة، يبدأها المسؤولون بكلمة: «نحن»، فنحن دائما الأقوياء ولا يجب أن يخامر أحد الشك في ما تكتنزه من شمولية، تحيط بما هو أعلى، وما هو أدنى.

إذا، لا داعي ليتجاسر أحد لطرح أي سؤال عن مستقبل النيل في مصر!! :

«واشترط ممثل وزارة الري الذي كلف بمتابعة الحلقة النقاشية، التزام أعضاء المنتدى والصحافيين بهذا الشرط قبل حضوره، واقترح على رئيس المنتدى أن يتحدث عن العلاقات الثنائية بين مصر ودول حوض النيل كبديل عن ذلك دون النظر إلى الاتفاقية الإطارية»[٣١].

في هذا السياق، أقامت الجمعية الإفريقية لدراسة حوض النيل ندوة عن مياه النيل، أدارها د. محسن شكري نائب رئيس الأكاديمية السابق، والدكتور زرد.

---

(٣١)د. فوزي عبد العليم (وزارة الري قاطعت ورشة عمل النيل حتى لا تسأل عن الاتفاقية) مقال، جريدة الأهرام، الأحد ١ نوفمبر ٢٠١٠.

ومن كلمة للدكتور السيد فليفل عميد البحوث والدراسات الإفريقية، كشف فيها عن أوجه الخلل وعدم الكفاءة التي يعالج المسؤولون بها مشاكل المياه، وقال إن مصر ستواجه عجزا يبلغ ٣٠ مليارا مكعبا.

وأضاف:

«إن الدور المصري غاب عن إفريقيا منذ عام ١٩٨٣، وأن وزارة الموارد المائية يمكن أن تتحمل مسؤولية الشأن الإفريقي، والمشروعات التي اقترحها عالم الجيولوجيا المصري رشدي سعيد، والمؤرخ جمال حمدان، ومقترحات د. صبحي عبد الحكيم الخبير السكاني بإنشاء حضارة جديدة في الصحراء لم تنفذ»[٣٢].

إن حضـارة مصـر عمادها المياه، لقد صـنع نهر النيل الحضـارة، ولكن على قدر ما توصـلت إليه التقنية الحديثة من تقدم، وعلى ضـوء الاكتشـافات العلمية التي تحققت على يد العلماء والمفكرين، لا يسـتطيع أي من كان أن «يصنع» قطرة ماء تبلل شفتي ظامئ، أو تعينه على استنبات الزراعة الضرورية للإنسان، تلك التي سماها المفكر جمال حمدان الخمسة الكبار وهى: (القمح.. الأرز.. الذرة.. القطن.. البرسيم).

هذه أعمدة المجتمع المصري الخمسة، فإذا اجتاحها الجفاف أو حبست عنها المياه وتوقف نموها لندرة هطول المطر، فما المصير الذي يكتنف مستقبل الحياة؟

«تشـير وثيقة لمنظمة الأرصـاد العالمية إلى أن ثمة عاملا في تفهم الجفاف، وهو أنه ظاهرة عرض وطلب ويتوقف الجفاف على كثافة وتوزيع النباتات والحيوان والمجتمع البشـري، وطريقة اسـتغلال الأرض، ليس فقط نقص المطر، وهناك قدر كبير من الصحة في هذا الرأي»[٣٣].

ليس بخاف على أحد أن التغيرات المو سمية تؤثر في كل الكائنات، وبـشكل لايمكن إهماله عند تحليل أثر ذلك في المجتمعات .

لقد أوجد هذا الا ضطراب النوعي، أساليب التكييف البيئي كضرورة لزيارة معدلات القدرة التي تستفيد من المواد المتاحة، والوعي بها كضـرورة من حيث كونها تسـتجيب لبيئتها، عبر ما يأخذ بيد المجتمعات في تطورها مرورا بسلسلة من المراحل المتعاقبة:

---

(٣٢)محمود عبد العزيز (مستقبل مياه النيل في ندوة) جريدة الأهرام، نوفمبر ٢٠١٠.

(٣٣)ديتس. ف. أوين: البيئة وقضاياها، ترجمة د. أحمد مستجير، مركز النشر لجامعة القاهرة ١٩٩١، ص١١٦.

«ويتوقف الأوج الذي تصله على مواصفات البيئة، لا سيما المناخ، فإذا ما أقلق الإنسان بتدخله مجتمعا، بدأ التعاقب من جديد ليظهر أوج آخر، قد يختلف عن الأوج الأصـلي، والمجتمعات الطبيعية عادة ما تكون مستقرة نسبيا، ويبدو أنه كلما زاد عدد الأنواع في مجتمع كلما ازداد احتمال أن يكون استقراره أطول أمدا»(٣٤).

إن الا ستقرار غريزة تـ ستبد بحياة الإنـ سان، ولكن لايكتب الا ستقرار لـ شعوب تتعرض أوطانها للجفاف والتصحر، أو تحبس عنها المياه.

هذه العوامل وإن اختلفت في أهميتها فإن أحدا من هذه العوامل لا يغض عنها البـ صر، خا صة إذا أ ضيفت إليها فكرتان أساسيتان تحكمان التقدم:

- التعاون.
- تكافؤ الفرص.

وليس ذلك بالغريب عن بيئة حوض النيل:

«فهناك تعاون كذلك ظاهر في جميع المستويات.. فالأشجار تمضي في نموها لأن حشرات معينة تقتل كائنات لو لم تُقتل لقـ ضت على الأ شجار، والأ شجار بدورها تكوّن الجو الذي يجعل حياة الأ شجار ممكنة، وفي كل من أنواع الحيوانات تعاون مشترك وليس قائما على الروابط العائلية فحسب، بل على الانتماء للنوع أيضا، وسلوك الطيور في سربها حين يدهمها الخطر مثل على ظاهرة عامة في الطبيعة هى ظاهرة العون المتبادل»(٣٥).

عندما ندلف من بوابة (الانتماء للنوع) سنجد المـسؤولين المـصريين في وزارة الري، قد قطعوا على درب (التعاون) شوطا بالغ الأهمية، إذ قاموا بإنشاء الخزانات ومحطات للأرصاد الجوية في أفريقيا، مجهزة بمقاييس للمطر، ودرجة الحرارة والرطوبة النسبية، والتبخر والنتح من ماء المستنقعات ونباتاتها.

---

(٣٤)المصدر السابق: ص١٢٢.

(٣٥)أ. هـ. جونسون (فلسفة وايتهيد في الحضارة) المكتبة العصرية- صيدا، بيروت١٩٦٥ص٨٣.

ولكي تدرأ مصر عن الشعوب الإفريقية ويلات التصحر وهدر المياه، قدم المختصون من أعضاء المنتدى الوطني لحوض النيل الدراسات المستفيضة، وتوصلوا إلى أن جزءا من مياه النيل إذا سحبت من الأرض فلابد أن تعوض إما برشح جديد (أو بتوازن هيدروليكي) من جهات مجاورة.

هذا كله جيد.. هذا حسن للغاية أن نصل لمعرفة كيفية تسرب المياه وتبخرها، لكن المشكلة التي قصرت الهمة دونها، تولت في بعض الأوقات مهمة النكوص إلى الوراء، وعدم التقدم للأخذ بأساليب التطور في مجال تكنولوجيا المياه، تحت ذرائع عدة، منها الزعم بضعف ميزانية البحوث، وهى الورقة الخاسرة التي روج لها المرجفون في حكومات مبارك.

في الوقت ذاته، جعلنا من إسرائيل المشجب الذي نلقي عليه فشلنا باستمرار، ولكي يسمح مسؤولونا لنفسهم بالرضوخ لمشيئة الإخطبوط الصهيوني الذي رسخت أقدامه في كل من بلاد الحبشة، وجنوب السودان، وإرتيريا، وأوغندا، حتى أصبح لديه من العتاد، ما يؤهله لإغلاق مضايق البحر الأحمر علينا، وليحقق أطماعه في مياه النيل:

أين كنا عندما تسربت إسرائيل إلى إثيوبيا من خلال شركات عالمية متعددة الجنسيات؟.

أين كنا عندما حظيت إسرائيل بالحصول على ٤٠٠٠٠ ألف فدان تستثمرها لمصلحتها ولمصلحة إثيوبيا؟.

أين كنا عندما وقعت الأمم المتحدة مع إسرائيل اتفاقا لتطوير وتحسين الإنتاج الزراعي في إثيوبيا؟.

أين كنا عندما حصلت الدول الأوربية على الآلاف من الأفدنة لزراعة الوقود الحيوي الذي يغنيها عن النفط بدلا من مساعدة إثيوبيا في إنتاج المحاصيل الزراعية التي تستوردها من الخارج؟.

ذلك كله –بلا شك– سيكون له بالغ الأثر على جغرافيا المكان بما له من مردود قوي في تنمية كيان العدو الصهيوني:

«ويؤسفني أن أقارن فساد منطق مسؤولينا الضار بأمتنا بمنطق عدونا الحريص على تقوية كيانه وإضعاف كياننا، فقد قال إلياهو بن اليسار أول سفير لإسرائيل في مصر: «إن استعادة التاريخ لا تتم إلا من خلال

الضغط الشديد على الجغرافيا» ولم يكن التوسع في احتلال سرقة الأراضي العربية ومياهها هو الشكل الوحيد من أساليب الضغط على الجغرافيا، بل كان منطق التنمية متعددة الأطياف لهذه الأرض هو سبيل إسرائيل لتحصين ذاتها العدوانية، وكانت الزراعة قرينة الأعمار في هذه التنمية في أرض صحراوية كالتي يرى وزراؤنا أنها «أرض مرمية» ولعل أرض صحراء النقب تكون نموذجا يوضح المقصود، وقد قال بن جوريون أول رئيس وزراء للكيان الصهيوني: «النقب منطقة خالية ومعزولة، وباستطاعتنا تحويله إلى منطقة مأهولة بالمستوطنات اليهودية»[٣٦].

يشير الواقع بإصبع الاتهام إلينا.. إننا متهمون بعد أن حافظنا على أن تظل أرضنا «مرمية» دون أن نأخذ بما لها من تأثير على جغرافية المكان، ولم نعمل فيها فكرا، ولا فأسا، وكان السادة الحكام ينظرون إلى أرض فلسطين «المرمية» فتبدو لمن يعالجون أو ضاع الحياة، ومشاكل المياه، بواقعية الأفق المحدود، على اعتبار أنها أفكار مضفرة بيوتبيا وأحلام أناس مصابين بالهُذاء.

إنهم يصنعون واقعا كان يبدو –لمن ليس لهم خيال أو طموح- مستحيلا قد يكون حدث ذلك في حياتنا، لا لشيء إلا لأننا تركنا لهم الحبل على الغارب، فساعدهم ذلك على الاعتداد بأخيلتهم التفاؤلية، وحسبهم أن تلك النظرة جعلتهم يشعرون بأن عقارب الزمن تجري في كل الأوقات وتصب في مصلحتهم، وأن العالم سيظل يدين لهم بالولاء والنفاق، وأن الأرض العربية والإفريقية، بمياهها، وأنهارها، وجغرافيتها الثرية، باتت على قيد أنملة منهم.

لا ينكر أحد أنهم نجحوا في تخمير الأرض، واستولادها بمختلف الزراعات، ودائما هم على استعداد لإبرام مختلف الصفقات، بالاتكاء على حقائب مكتظة بالأماني الواعدة، والدراسات الجيولوجية، والاستنباتية، والتوليدية، والتي على ضوئها ظلوا يجنون الثمار:

«فاشتمل مشروع «نمو النقب» الإسرائيلي على حقول الدفيئات لإنتاج الخضر والفواكه كالطماطم والفراولة والبطاطس، مع منح كل وحدة زراعية مخزن تبريد ومعمل تغليف لتشوين منتجاتها، كما اهتموا بزراعة الحمضيات على مياه الصرف المعاد معالجتها، وكانت هناك مسامك عبارة عن برك في وادي

(٣٦)د. محمد المخزنجي: (جريمة تصحير مصر) مقال، جريدة الشروق، الخميس ٣سبتمبر٢٠١٠ ص٢٠.

ومرتفعات النقب لتربية الأسماك، مع أغراس زيتون مروية بمياه مالحة ومراع للنوق وغرف ضيافة لاستقبال رواد سياحة الصحراء»[٣٧].

على حين ظلت الأرض «المرمية» المصرية جدباء، مقفرة، لا لفقر في العقول المستنيرة، ولا في عدم القدرة على وضع المشاريع التنموية، ورسم آفاق المستقبل، وإنما كانت مشكلة مصر تكمن في وجود أجيال من العباقرة الأفذاذ في شتى المجالات العلمية والفكرية، والأدبية، ولكن نبت قرائحهم ومشروعاتهم النهضوية، كان يتصدى لها بالإعاقة من لا يحبون أن يكون لمصر إرادة مستقلة، خدمة لمصالحهم الخاصة، وتعزيزا لدفع عجلة التقدم إلى الوراء.

لا غرو إذا وجدناهم على اتفاق مع ما يخططه لنا العدو الصهيوني، من تجفيف نهرنا، وتصحير أرضنا، وتدهور مواردنا المادية، ولدينا من الأمثلة على ذلك الكثير.

في تسعينيات القرن الماضي، أثار «مشروع استثمار بحيرة ناصر» من حوله جدلا واسعا، ومن خلال الدراسات الموثقة، ثبت أن مياه بحيرة ناصر، يتبخر منها ٧ مليارات متر مكعب، وعندما ظهرت فكرة استغلالها دعما للاقتصاد المصري، انبرت بعض الأصوات بالاعتراض، مؤثرة أن تتركها كمحمية طبيعية، لا تمتد إليها يد إنسان حتى لا تلوث.

(ألم يكن من الممكن أن تمتد يد الإنسان بخطط بناءه تقضي على الإصابة بالتلوث؟!) وأن يكون لدى مصر برنامج طموح لغزو الصحراء واستخدام السلت المتجمع من بحيرة ناصر ليرفع خصوبة الأرض التي ستروى بشبكة من قنوات الري تغذيها البحيرة.

بمواصفات حضارية، كان هناك رأي آخر يرى أن الخير الوفير سيعود لمصر وشعبها، إذا ما اخذ بالدراسات المطالبة بعمل سدود تقام للاستفادة من مياه بحيرة ناصر المتبخرة لاستغلال الأراضي المحيطة بالبحيرة وزراعتها، كما يمكن تنمية الدخل العام بدفع السفن السياحية، والفنادق العائمة على تلك الأمواه:

«وهى تمثل البنك المركزي لمخزون مصر الإستراتيجي من المياه العذبة القابع في أضخم بحيرة صناعية في العالم بمسافة تبلغ نحو ٦٥٠٠ كيلو متر مربع بطول ٥٠٠ كيلو متر وعرض ١٢ كيلو مترا عند أعلى منسوب

(٣٧)د. محمد المخزنجي: مصدر سابق.

للتخزين البالغ ١٨٢ مترا فوق سطح البحر لتكون مجاميع هذه القطرات الزلال من المياه العذبة وأنقى مياه في العالم كله، تزيد على ١٦٤ مليار متر، تتجدد سنويا مرتين أكبرهما صيفا مع قدوم أشهر فيضان الصيف الكبير من المنابع الحبشية ومن بحيرة تانا من إثيوبيا، وعلى مدى العام من المياه القادمة من المنابع الاستوائية من البحيرات الاستوائية العظمى فيكتوريا وألبرت وكيوجا وإدوارد وغيرها السطحية والتي تمثل ٩٨٪ من رصيد مصر من المياه العذبة »[٣٨].

وبذلك يمكن زيادة الرقعة الزراعية الحالية من ستة ملايين فدان إلى ثمانية ملايين فدان، والواقع أننا كنا لانستعمل من حصة المياه نحو ٥٥-٦٠٪ في زراعة٧٣ , ٥ مليون فدان كانت توزع بين زراعة شتوية وصيفية ونيلية، مع تطبيق نظام الري بالحياض، أما الباقي وقدره ٤٠ إلى ٤٥٪ فتضيع في البحر.

ثم كان الخلاف الذي ينشب الأنياب، ليغزل نسج وهن اللا انتماء في عقول المبايعين لحكم مصر ما قبل ثورة يناير، أوصلهم إلى حالة من اللامبالاة، وفرض عليهم وجهة النظر التي تكرس لعدم الاستفادة من مياه البحيرة التي أنعم الله بها على امتنا.

بينما يتعامل العدو الصهيوني مع قضية المياه، ومع «الأرض المرمية» على ضوء نهج مقنن، غايته، ربط التنمية متعددة الأطياف بالواقع، وتبعا لخارطة الضغط الصهيوني، حيث تم تحديد جغرافية هذا الكيان الاستيطاني -مؤقتا- حسب الخطة التي كان وضعها هيرتزل مؤلف كتاب: الدولة اليهودية:

«فهو المساحة من نهر مصر إلى الفرات، ولابد في البداية من فترة انتقالية لتثبيت مؤسساتنا يكون فيها الحاكم يهوديا، وما أن تصل نسبة اليهود إلى الثلثين حتى تفرض الإدارة اليهودية نفسها سياسيا»[٣٩].

هى ذات الخطة التي يجري القيام بتنفيذها الآن -٢٠١٢- على أرض الضفة الغربية في فلسطين المحتلة، والمنقولة من الرجل الأبيض الأمريكي في اقتلاع الهنود الحمر من الجذور، وإطلاق السيادة للرجل الأبيض الأمريكي، وعلى نفس المنوال، اجتذبت الصهيونية العالمية خطوات السيناريو القديم، بداية من الا ستيطان على مساحة (من النيل إلى الفرات) إلى الدخول في مرحلة التنفيذ:

(٣٨) أحمد نصر الدين (تنمية بحيرة ناصر.. آفاق ومحاذير) مقال، جريدة الأهرام، الثلاثاء ٣ أغسطس ٢٠١٠.

(٣٩)عبد الوهاب كيالي (المطامع الصهيونية التوسعية) بيروت، مركز الأبحاث، ص٦٨.

«وقد ثبت أنهم اكتسبوا الإرادة والتصميم على تنفيذ خططهم، والدليل أن كل أرض في فلسطين و ضعوا أياديهم عليها صـــارت حقا لهم بالتقادم، أو على اعتبار أنها جزء من «الحق التاريخي» وذلك الحق تبلوره سياسة تقوم على جناحي الإستراتيجية والتكتيك»[٤٠].

والمشــكلة، أن لدى مصــر مفكرين وعلماء كثر، ولدينا من القامات العلمية الرفيعة الكثيرين، لكنهم يعملون في فراغ واجتهاد شخصي، دون إستراتيجية علمية، تخرج المشاريع المدفونة في أدراج وزارة البحث العلمي، لتساهم في عملية التطور.

لكن. شاءت السلطات الرازخة –آنذاك– تحت مشاعر التبعية، وعدم الأخذ بيد الوطن، أن تعرقل كل ما هو إيجابي ولا تدعم المشاريع التي قد تخرج مصر من النفق المظلم.

ولا تزال تجربة الراحل د. محمد مســتجير ماثلة للعيان، إذ نجح في إرباء محصــول الأرز، مســتفيدا من عملية تدوير مياه الصرف الصحي، فعادت التجربة على البلاد والمزارعين بالخير الوفير.

لقد ترجم د.محمد مســتجير مقولة الحاجة أم الاختراع إلى واقع كان يبشــر بمســتقبل باهر للمحاصــيل الزراعية في مصــر، حيث أخذت أزمة الغذاء العالمي تتفاقم، بعد أن اســتطاعت الدول الكبرى أن تحول المحا صيل الزراعية إلى طاقة بديلة عن البترول، وقد تزامن مشروع د.مستجير ببداية أزمة مياه النيل مع دول المنابع، وهو مشروع ذو تكلفة متوا ضعة جدا، وهو يسد فجوة متسعة في أزمة الغذاء المحلي، وعندما يُطرح الســؤال: لماذا لا يعمم، فلا أحد يجيب، لا من وزارة الري، ولا من وزارة الزراعة، وإذا حدث وكانت هناك إجابة فإنها لا تتجاوز حملات التشكيك في مشروع د. مستجير.

ومع احتدام أزمة المياه يرتفع صــوت المهندس أحمد فهمي مســتشــار وزير الموارد المائية، ورئيس قطاع مياه النيل الســـابق عن هيدرولوجية نهر النيل والتعاون بين مصــر ودول حوض النيل، وملف المياه العالمي خلال الخمسين عاما القادمة، وعن آثار التغير المناخي مسجلا رقما ترتعد من هوله الفرائص، أكد على ذلك في الندوة العلمية للمركز القومي للبحوث، موضــحا: إن حصــة الفرد من المياه في مصــر تتناقص، وتوقع أن تكون ٣٥٠م في عام ٢٠٤٠، نســبة أقل بكثير مما تحتاجه دابة من دواب حرث الأرض الزراعية، ولا تفســير لذلك سوى أننا مقبلون على فقر مائي.

---

(٤٠)للمزيد من التفاصيل، راجع كتابنا: «يوسف على خزائن مصر» مكتبة جزيرة الورد.

يضيف المهندس أحمد موضحا كميات المياه بشيء من التفصيل:

«إن كمية الأمطار التي تسقط على دول حوض النيل تبلغ ٢٠٠٠ مليار متر، يتبقى منها ٨٤ مليار وهو يمثل ٥٪، كما أن بحر الغزال يستقبل مليار متر٣، ويخرج منها نصف مليار وتحتفظ الدراسات التي قام بها أجيال متعاقبة من مهندسي مدرسة الري المصرية المشهود لها بالكفاءة بجميع المقاييس، وكمواقع التصرفات واختلاف مناسيب كل القنوات والترع والأماكن المقترحة لإقامة السدود لتطوير منظومة الري».

يتطلب ذلك التعامل بواقعية المصلحة الخاصة لدول المنبع ودول المصب، وبما يتيح مراجعة كافة تأثيرات السدود الأثيوبية، خاصة منها: «سد النهضة» ومدى انعكاساته على القدرات التخزينية لبحيرة السد العالي، وارتباط ذلك بدورات الانحسار،أو الفيضان العالي التي يمر بها نهر النيل دوريا كل عشرين عاما، وكذلك أثر السدود على قدرة كل من السد العالي، وسد أسوان على توليد الطاقة.

يجتاح الخوف الشارع المصري من الدخول في مرحلة الفقر المائي، ومع تغير مظاهر الطبيعة، وزيادة عدد السكان ومع الشح المائي، عقد المجلس العربي للمياه اجتماعا بفرنسا في مارس ٢٠١٢، أكد فيه الدكتور هشام قنديل وزير الموارد المائية والري آنذاك: إن مصر ستتأثر بالتغيرات المناخية بشكل كبير ومباشر ليس فقط داخل حدودها، ولكن من خلال دول حوض النيل، ويقوم المسؤولون بتقييم التأثيرات الهيدرولوجية المتوقعة على مصر ونهر النيل.

وللتغلب على محدودية الموارد المائية، وثبات معدلها، ولمعالجة الكميات التي تدخل في حصة كل دولة من دول الحوض فإن الأمر يتطلب أن نصوب البوصلة لوضع حلول بناءة بشأن كميات المياه المهدرة، وتقليص حجم مساحة المستنقعات البالغ حجمها ٧٠ ألف كيلو متر، ووضع المشاريع المناسبة حتى لا تظل تؤثر هضبة البحيرات على بعضها البعض بسبب ضياع المياه في المستنقعات.

ويتطلع المصريون إلى إيجاد إدارة مائية رشيدة، تلم بدول الحوض من أجل التماسك والاستقرار حتى تصبح جسدا واحدا، لا أشلاء متناثرة على ضفاف المنابع، كما حدث من أديس أبابا حين خرجت على مبدأ التوافق الذي كان يحكم علاقة دول الحوض ببعضها، وقامت بإنشاء السدود، دون أن ترجع في ذلك إلى أحد.

وحين اعترضت مصر، كانت مجموعة عنتيبي تصر على غض البصر لمصلحة إثيوبيا، وأبدت مصر أنها ليست معنية بما يتمخض عن اجتماع عنتيبي في أواخر يناير ٢٠١١، ورفضت ومعها السودان التوقيع على هذه الاتفاقية.

وقع على اتفاقية عنتيبي دول المنبع: إثيوبيا.. أوغندا.. بوروندي.. رواندا.. تنزانيا.. كينيا.

فجاء تنسيق المواقف بين الدول الثلاث: مصر.. السودان.. الكنغو، للتخلص من الحالة التي عالجها الإعلام المصري على شكل ضغوط فرضتها دول المنبع لكي توقع الدول الثلاث على الاتفاقية الإطارية، وقد سارعت هذه الدول في طلب عقد الاجتماع الا ستثنائي للتعاون بين دول حوض النيل والتو صل لرؤية توافقية تزيل الخلافات العالقة بينهم وبين دول أعالي النيل.

وقد نفت وزيرة المياه الكينية ما يتردد على ألسنة البعض من ضغوط، والحقيقة أنها تتقدم برجاء إلى مصر والسودان والكنغو لحل نقاط الخلاف والانضمام إلى الاتفاقية التي لن تكون سارية المفعول قبل التصديق عليها من برلمانات الحوض.

وفي هذا الصدد، أوضح الدكتور هشام قنديل وزير الموارد المائية والري في الحلقة النقاشية الموسعة التي عقدتها وحدة دراسات السودان وحوض النيل بمركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية في السابع من مارس ٢٠١٢.

إن دول المنابع لن تستفيد الشيء الكثير من التوقيع المنفرد، لأنه يوجد بالفعل تجمع قائم لدول الحوض الجنوبي منذ فترة، وانضمام إثيوبيا لهذا التجمع لن يضيف شيئا إذ أنها تقع في الحوض الشرقي، ولا صلة بالحوض الجنوبي، وفي محاولة للمساعدة على الخروج من الوضع الحالي، قدمت عدة مقترحات، يتم التشاور حولها مع السودان والكنغو. وفي هذا السياق، أقامت الجمعية الإفريقية لدراسة حوض النيل ندوة عن مياه النيل أدارها د. محسن شكري نائب رئيس الأكاديمية السابق والدكتور زرد.

ومن كلمة للدكتور السيد فليفل عميد البحوث والدراسات الإفريقية، كشف فيها عن أوجه الخلل وعدم الكفاءة التي يعالج المسؤولون بها مشاكل المياه، وقال إن مصر ستواجه عجزا يبلغ ٣٠ مليارا مكعبا، وأضاف:

«إن الدور المصري غاب عن أفريقيا منذ عام ١٩٨٣، وأن وزارة الموارد المائية يمكن أن تتحمل مسؤولية الشأن الإفريقي، والمشروعات التي اقترحها عالم الجيولوجيا المصري رشدي سعيد والمؤرخ جمال حمدان، ومقترحات د. صبحي عبد الحكيم الخبير السكاني بإنشاء حضارة جديدة في الصحراء لم تنفذ»[٤١].

ولكي تكون الرؤية لدينا قراءة صحيحة، تلم بمختلف التفا صيل.. لنر كيف صار الصراع جدلا مدججا بسطوة الشهوات والاستئثار بكل ما في المرافئ والمحيطات والأنهار، دون أن ندعي الزعم بأننا كنا نستشرف تلك المقا صد، وقراءة آفاق الأيام، منذ انهيار الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١، وما تبع ذلك من تغيير المقا صد السياسية والاقتصادية، وما تبع ذلك من تأثير لغة الخطاب السياسي على مختلف الأطر الفقهية، واللاهوتية، وشتى أنواع الفنون والآداب، دون أن نستبعد من تلك الصورة سقوط حكم منجستو في الحبشة عام ١٩٩٠ الذي كان من أوائل المؤيدين لانفصال جنوب السودان عن الشمال، ثم ا ستقلال إريتريا، وانسحاب ذلك على إعادة بناء قواعد الأمن الجغرافي لكل من الولايات المتحدة وإسرائيل، خاصة بعد اندلاع المعارك العرقية والقبلية، داخليا وخارجيا بين دول الجوار الواقعة في حوض النيل، فضلا عن حالة الجفاف التي مرت بتلك البلاد.

بينما كانت إ سرائيل تأخذ سمتها لإطلاق قمرها الصناعي: (أوفيك٢٠٠٠)، وهى ما ضية في النبش برا، وبحرا، وجوا، عن ثغرة تنفذ منها، لتعزيز تحالفات علنية أو ضمنية مع كل من تركيا.. إيران.. إثيوبيا، غير آبهة بنظم تلك الدول السيا سية أيا كانت (سلفية دينية في إيران/ علمانية في تركيا/ مارك سية في أثيوبيا)، مع غض الطرف عن توجهات هذه النظم بالعداء المعلن لها، أو الوفاق معها.

وكان الباب مفتوحا –ولا يزال– أمام مصر، لتوثيق عرى الصداقة مع إثيوبيا، ويمكنها الاستفادة من الصلات الدينية، والتاريخية ذات الطابع الإيجابي والبناء، بين الكنيسة الأرثوذوكسية المصرية وبين مسيحي الحبشة، إلى جانب رابطة النيل، كمصدر توا صل وتنسيق، وتعاون زراعي و صناعي، وعلمي، يفيء بالخير على اقتصاديات دول الحوض.



(٤١)محمود عبد العزيز (مستقبل مياه النيل في ندوة)، جريدة الأهرام، نوفمبر ٢٠١٠.

الفهرس